324

HARLEQUIN

روايات أحلام

في مهب الحب

كاترين سبنسر

www.elromancia.com
مرمورية

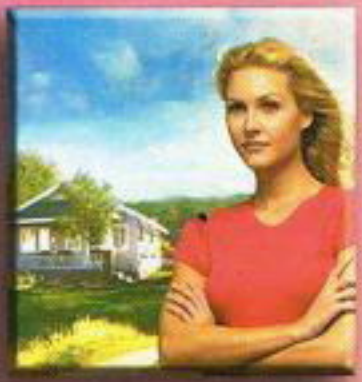

في مهب الحب

كان إسم إيثان بومونت على كل لسان. باحترام يخص به عادة الملوك. وتساءلت آن ماري لماذا هذا الاهتمام بايثان بينما العرس يخص أخيه وصديقتها؛ وكرهت مالك الجزيرة الثري هذا، حتى قبل أن تلتقيه..

- لماذا هذه العدائية تجاهي، يا آنسة؟

- أنت لست من النوع الذي يعجبني، فأنا لا أحب الرجال المستبدين. ولكن هذا ليس مهما، فعندما ينتهي العرس لن نرى بعضنا بعضا مرة أخرى.

- لا أوافقك الرأي سنمضي قدرا كبيرا من الوقت معا في الأسابيع القادمة.

- لماذا؛ لسنا الشخصين اللذين سيتزوجان.

- هذا صحيح. وأنا أحمد الله على ذلك من أعماق قلبي!

... ولكن حتى أشد القلوب حذرا يمكن أن تكرر خطأ الوقوع في الحب... ولا تتعلم!

لبنان:	2500ل.ل	البحرين:	1دينار
سوريا:	75ل.س.	السعودية:	10ريال
الأردن:	1.5دينار	مصر:	8جنيه
الكويت:	750فلس	المغرب:	15درهم
الامارات:	10دراهم	تونس:	2دينار
قطر:	10ريال	عمان:	1ريال

ISBN 9953-15-200-4

روايات أحلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية
محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
بترخيص خطي من Harlequin Enterprises II B.V

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل العلامات التجارية استعملت
بترخيص من شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص
حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:
In The best man's bed
First published in Great Britain 2003
Harlequin Mills & Boon Limited
© Kathy Garner 2003
Translation © Dar El-Farasha - 2004
ISBN 9953 - 15 - 200 - 4

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص.ب: 8254/ 11 هاتف/ فاكس: 961-1-450950- بيروت - لبنان
Email: info@darelfarasha.com - http:www.darelfarasha.com

١ - السيد العظيم

إيثان بومونت... إيثان أندرو بومونت... السيد بومونت! منذ تحديد موعد الزفاف، واسمه على كل لسان، باحترام يُخص به عادة الملوك.

وتساءلت آن ماري باركلي، وهي ترشف العصير، عن الخطأ في زواج فيليب بومونت؟ ففي الأعراس يشكل العريس والعروس عادة، محور الاهتمام، فلما هذا الاهتمام بإيثان بومونت في هذا العرس؟

- إذا نظرت الى اليمين يا آنسة، فستلمحين «بيلليفلير».

وبخفة ورشاقة مدهشتين بالنسبة الى رجل ضخم كهذا، ظهر مساعد الطيار من خلفها وأشار من فوق كتفها مضيفاً: «إنها الجزيرة التي تشبه الهلال».

مالت إلى الأمام تتأمل بقعاً من الأرض تطفو كأحجار من الزمرد الأخضر على المياه الفيروزية. وتساءلت بعجب لما يملؤها منظر الجزيرة الرائعة، حتى من هذا البعد، بمثل هذا الشعور الغريب بالتوجس: «نعم، أراها. متى تهبط الطائرة؟»

- قريباً. أرجو أن تبقي جالسة، وتضعي الحزام. لكنك لست بحاجة إلى من يذكرك بذلك لأنك لم تتحركي منذ تركنا اليابسة. فهل الطيران يخيفك يا آنسة؟.

- ليس دوماً.

وعادت تنظر من النافذة فلم ترَ سوى سماء زرقاء: «لكنني لم أتعود السفر في طائرة صغيرة كهذه، خاصة فوق أميال من البحر».

فعاد يبتسم بلطف: «أنت بين يدين أمينتين، فالقبطان مورغان هو من

أكثر الطيارين كفاءة. السيد بومونت لا يستخدم سوى الأفضل».

مرة أخرى نطق المستخدم الكاريبي باسم بومونت بتبجيل، وكأن مضيفها إنسان فوق مستوى البشر، وها هي الشكوك المقلقة تتملك آن ماري مجدداً.

لم تكن متشوقة للتعرف إلى السيد بومونت الواسع النفوذ، وكانت سولانج قد أخبرتها حين دعتها إلى العرس أنه لا يشبه فيليب بشيء. ورغم الشبه في المظهر ورغم أنهما أخوان غير شقيقين، إلا أنه أعظم من النواحي كلها، ولعله أعظم من الحياة.

- يمكنني أن أفهم السبب الذي يجعل فيليب قلقاً نوعاً ما من إخباره بنبأ خطوبتنا. فإيثان... كيف أعبر عن ذلك؟ مرهوب قليلاً.

- بمعنى آخر، إنه طاغية. تصوري رجلاً يخاف أن يخبر أسرته أنه سيتزوج. إنه أمر رجعي. إن كل ذلك الثراء والسلطة برأيي ترك أثره على شخصية إيثان بومونت.

مضت فترة صمت قبل أن تقول سولانج: «نعم، إنه ذو سلطة، لكنه في أعماقه رجل طيب للغاية. إنه لا يعبر عن مشاعره بسهولة طبعاً، ولا أتصوره يسمح للمشاعر الحميمة بأن تتحكم في حياته اليومية».

- لكنه سمح بذلك، مرة على الأقل. وابنه يشهد على ذلك.

- لكنه من دون زوجة، مع الأسف. لعله ورث الكثير من تحفظ أمه الإنكليزي، وهذا هو السبب في عدم دوام زواجه طويلاً.

وتنهدت سولانج ثم أردفت: «يا للخسارة! يالله من أمر مؤسف».

- أنت تعنين (يا لحسن الحظ)! فما من امرأة تحتاج الى رجل كهذا في حياتها، رجل يحرمها من ابنها. أنا أشعر بالأسف من أجل الطفل الذي يعيش تحت رحمة أب كهذا.

- لكن الذنب ليس ذنب إيثان، يا آن ماري، فالأم هي التي هجرته هو وأبيه.

- وهذا يظهر مدى سوء الوضع بالنسبة إليها. فقد فضلت أن تترك ابنها

على أن تصبر على زوجها!

انفجرت سولانج بضحكة موسيقية سرعان ما خفتت بحذر: «عليك ألا تتكلمي بهذه الطريقة أمام الناس في «بيلليفلير». لن يتقبلوا انتقاد غريب «لسيدهم».

وهو «سيد» في الواقع. مالت آن ماري الى الخلف في كرسيها وأغمضت عينيها فيما أمواج البحر تقترب لتحيي الطائرة التي وصلت أخيراً الى الجزيرة.

يا له من إقطاعي!... مضحك للغاية.

***

لعله إقطاعي، لكن رأيها أنه مضحك أخذ يتغير أثناء الرحلة من المطار الى قرية بومونت. في تلك الليموزين الرائعة المترفة، لم تشعر إلا بالقلق وهي ترى وصفها شاذاً في بيلليفير.

وفيما كان السائق يقطع شوارع تلك المدينة الصغيرة، وقف السكان يتفرجون عليها وهم يومئون باحترام. وأخذ الأولاد بعيونهم السوداء يلوحون بأيديهم الممتلئة.

تساءلت عما إذا كان عليها أن تردّ عليهم، وكرهت هذا التردد المفاجيء الذي يتناقض مع طبيعتها. لعل «السيد» لا يوافق على ذلك؟

عندما نزلت من الطائرة صدمتها حرارة الشمس الملتهبة ما جعل السرور يمتلكها حين ركبت السيارة المكيّفة. لكن عندما تركت المدينة وصعدت التلة المؤدية إلى قرية بومونت، علقت تحذيرات صديقتها في معدتها كوجبة ثقيلة.

إن الاضطرار إلى الانحناء باحترام أمام إقطاعي مستبد لأكثر من شهر كفيل بأن يقطع شهية أي شخص! والأسوأ من ذلك، إن هذا الأمر يهدد بهجتها في الحضور الى بيلليفلير لتكون وصيفة صديقتها العروس.

ذلك الغريب المستبد سيستخدم سلطته لإثارة الملل في عرس سولانج.

www.elromancia.com

لكن المزعج أكثر، هو أن يؤثر استبداده على الزواج أيضاً.

كانت قد تعرفت الى فيليب بومونت وأعجبها فهو وسولانج متناسبان تماماً. لكنها لم تره قوياً أو ذا شخصية مؤثرة، فهو من الذي يفضلون الطريق السهل على الصعب. ومما عرفته عن أخيه غير الشقيق، رأت أن المقارنة بينهما صعبة.

اشتد قلقها حين اجتازت السيارة البوابة المؤدية إلى قرية الأسرة، لتتوقف بعد قليل أمام البيت الرئيسي.

كانت معتادة على الرفاهية إذ ارتادت أفضل المدارس، وسافرت إلى بلدان عدة كما لم تعرف قط نقصاً في المال أو عوزاً. ومع ذلك، أذهلها حجم منزل بومونت وفخامته.

لم يكن مجرد فيللا أو بيت لرجل غني في جزيرة بل هو قصر. كان محاطاً بحرارة الجو الملتهبة، إلا أنه ينضح بهالة من برودة الرسميات. وإذا كان المنزل يمثل صاحبه، فلا عجب في أن تشعر سولانج بالرهبة منه.

ـ آنستي.

أجفلت آن ماري حين فتح باب السيارة خادم يرتدي ملابس أنيقة. انتظر ليساعدها على النزول من السيارة فنزلت الى الفناء وهي تشجع نفسها لمواجهة أي وضع قد ينتظرها.

أينما نظرت رأت أزهاراً! وفوجئت عيناها بلون الجدران التبني الرائع التي تنساب الأزهار من بين أحجارها المزخرفة الضخمة في فوضى تختلط فيها الألوان.

وانتبهت على الفور الى رذاذ الماء البارد من النوافير وإلى أصوات بعض الطيور ذات الألوان البراقة، وإلى شذا الزنابق وأزهار الزنجبيل الغريب.

رافقها الخادم، حاملاً مظلة صغيرة ملونة، الى درجات تفضي إلى بوابتين من الحديد المزخرف بشكل بديع. بدت البوابتان كالدانتيل الأسود المخرّم، وهما تؤديان الى فناء داخلي مسقوف مستدير الشكل وواسع.

وجدت سولانج تنتظرها، فيما الابتسامة ترتعش على شفتيها: «كم

افتقدتك».

وأردفت وهي تتجه نحوها وتقبلها على الخدين: «أهلاً بك في بيلليفلير يا حبيبتي. تسرني رؤيتك هنا أخيراً».

أمسكت آن ماري التي اغرورقت عيناها بالدموع، بذراعي صديقتها وهي تتفحصها: «مسرورة؟ لو كنت مسرورة حقاً، فلماذا تبكين؟»

ـ لأنني سعيدة.

ـ لاتبدو عليك السعادة ياسولانج.

هزّتها سولانج وهي تنظر من فوق كتفها ثم قالت: «تعالي لأريك غرفتك، حيث يمكننا أن نتحدث بحرية أكبر. لقد أعطى إيثان تعليمات بوضعك في فيللا الضيوف المجاورة لغرفتي».

ـ أتعنين أنك لا تقيمين هنا في المنزل؟

ـ لا، طالما لم أتزوج، لأن إيثان لا يقبل بذلك.

ـ أتعنين أنه يراقب تصرفاتكما؟

ردت سولانج بصوت خافت: «لا، لكن المفاهيم والعادات هنا مختلفة».

فقالت وهي تجتاز برفقة سولانج بوابة أخرى مزخرفة: «هذا ما أراه».

وصلتا إلى شرفة مبلطة تطل على بحيرة لا نهاية لها. وكان المشهد يخطف الأنفاس بجماله، مشهد رائع للسماء والبحر وأشجار النخيل. سألت آن ماري: «أخبريني هل في غرفة الضيوف أبواب ونوافذ؟ أم علينا أن نهمس طوال الوقت كيلا يسمعنا أحد؟».

ـ سنكون في عزلة تامة، ماعدا حين تدخل الخادمات. عندئذ علينا أن نكون متحفظتين.

سارتا في طريق مظلل تتخلله سلسلة من الجسور تعلو نماذج مصغرة لشلالات وجداول: «نحن بعيدتان تماماً عن البيت الرئيسي. لكن أجنحة المنزل مترفة للغاية وفسيحة».

ـ هذا حسن، فأنا بحاجة الى مكان واسع لأنهي العمل في الأثواب.

التفتت سولانج إليها وقد استعادت للحظة حيويتها المعتادة: «لا أستطيع الصبر لرؤية ثوبي. الصور التي أرسلتها لي رائعة».

- يمكننا إجراء القياس لاحقاً إذا شئت، لكي تكوّني فكرة عن مظهرك عندما ينتهي.

- سأنتظر حتى الغد، لأنك سافرت طوال النهار. ستتعشى باكراً، وأظنك تريدين أن تغتسلي وتغيري ملابسك.

- يفترض أن أقابل إيثان بومونت العظيم. أشعر بالغصّ منذ الآن.

فقالت سولانج ضاحكة: «لن تقابليه الليلة. لقد طلبت وجبة خاصة الى جناحي. إيثان مسافر في عمل، وعمته وزوجها يزوران بعض الأصدقاء حيث سيبقيان حتى عصر الغد».

- ظننت أن إدارة القرية وحياة كل شخص فيها هو عمله؟

- يا إلهي، كلا! فلديه استثمارات ومزارع ومكاتب في كافة أنحاء العالم. لكنه بدأ حديثاً يوكل فيليب ببعض الأعمال، ليركز هو طاقته كلها في شؤون البترول. وهذا هو سبب سفره هذه المرة.

- إلى الشرق الأوسط؟ هذا حسن! كلما ابتعد كلما كان ذلك أحسن! لقد كرهت هذا الرجل لذا لست مستعجلة للتعرف إليه.

- إنه في مكان أقرب من الشرق الأوسط، مع الأسف. في الواقع، إنه قرب سواحل فنزويلا وبالتالي، ليس بعيداً من هنا على الإطلاق. سيعود بعد أيام قليلة، أنا واثقة من ذلك. لكن حتى ذلك الحين ستجدين بديلاً عنه في عمته وزوجها وأدريان.

- ومن هو أدريان؟

- إبن إيثان. إنه طفل لطيف للغاية، ولا أظنك ستجدين صعوبة بالغة في أن تحبيه بصرف النظر عن شعورك نحو أبيه.

ووصلتا الى فناء فسيح، فوقفت لتشير الى فيللتين تربضان على مرتفع يشرف على البحر قائلة: «حسناً، ها قد وصلنا ياعزيزتي. سنقيم هنا في

الفترة القادمة».

بعد انطباعها الأول في قرية بومونت، لم تدهش آن ماري لرؤية المشهد الذي طالعها الآن. بدت الڤيلتان اللتان تحيط بهما أحواض الزهور، نموذجين مصغرين عن المنزل الرئيسي، بشرفاته الواسعة وأبوابه الحديدية المزخرفة، فضلاً عن بركة السباحة فيه. هتفت آن ماري مبهورة بالجمال الممتد أمامها: «علي أن أعترف بأن إيثان بومونت مضيف ممتاز مهما كانت عيوبه الأخرى. المكان ممتاز! سنمضي وقتاً رائعاً هنا في الأسابيع القليلة القادمة».

فابتسمت سولانج بكآبة وردت: «أرجو أن يكون كلامك صحيحاً».

- ما من شك في ذلك! فالأيام التي تفصلك عن العرس يفترض أن تكون أياماً سعيدة بالنسبة إليك، ولا أفهم لما لست متألقة كعادتك. ماذا حدث يا سولانج؟ هل تساورك الشكوك بالنسبة إلى زواجك من فيليب؟ فإذا كان الوضع كذلك، لم يفت الأوان بعد على إلغاء الزواج.

- الأمر لا يتعلق بفيليب! أنا أعشقه أكثر من أي وقت مضى، وأشعر دوماً بالسعادة عندما يكون معي. ولكن بقية الوقت... أشعر وكأني في غربة في هذا المكان.

تكوّر فمها حزناً. وأشارت إلى الأراضي الممتدة من الناحيتين، وإلى التلة المكسوة بالأشجار خلف القرية ثم أضافت: «ثمة نوعان من الناس على هذه الجزيرة يا آن ماري. المواطنون وهم سكان البلاد الأصليون، ونحن الذين لم نولد هنا.»

- إذا كان هذا صحيحاً، فكيف ستواجهين الحياة هنا؟

- يقول فيليب إن شعوري سيتغيّر بعد أن نتزوج ونبدأ في بناء أسرة. لعله على حق! لعل المشكلة أنني بقيت وحدي مدة طويلة مؤخراً.

- ولماذا لم يكن فيليب معك؟

- كان يتابع الأعمال في أوروبا وآسيا. وهو الآن في ڤيينا منذ أسبوع، فإيثان يقول إنّ عليه أن يلعب دوراً أكثر فعالية في أعمال الأسرة.

إيثان يقول... إيثان يظن... إيثان يأمر...!

- أخبريني يا سولانج، هل حدث أن تجرأ أحدهم على أن يقول تباً لما يريده إيثان؟

جحظت عينا سولانج كمهر وقع في رمال متحركة وردت: «يا إلهي، إياك أن تقولي كلاماً كهذا أمام أي شخص آخر، فسيُعتبر...»

وبسطت يديها تبحث عن الكلمة المناسبة.

- خيانة؟ يا إلهي، ياصديقتي. من هي هذه المخلوقة الصغيرة الخائفة وماذا حدث للمرأة التي كنت أعرفها؟

- مازلت أنا نفسي في الداخل.

وبذلت سولانج جهداً بالغاً لتظهر بشاشة أكبر قبل أن تضيف: «كل مافي الأمر أنني أجد صعوبة في التعود على وضعي الجديد. لكن بعد حضورك سرعان ما سأعود كما كنت!».

وكانتا قد وصلتا الى منزل الضيوف، فنظرتْ آن من الباب المفتوح لترى خادمة مشغولة بفتح حقائبها وإخراج ما بداخلها، فقالت: «لا أريدها أن تعبث بثوب العرس، لذا من الأفضل أن أدخل وأستلم زمام الأمور. حديثنا هذا لم ينته يا سولانج. قد تخدعين أي شخص آخر بتهذيبك وابتسامتك الصغيرة الهادئة، وخضوعك للقوانين والأعراف كلها، لكنك لن تخدعيني. شيء ما ليس على ما يرام في هذا الفردوس، وأنا أنوي اكتشافه».

- ما من شيء سوى التوتر المعتاد الذي يسبق العرس وصعوبة التأقلم مع وضع جديد.

وأردفت سولانج وهي تتجه بتوتر الى جناحها الخاص: «أنا دوماً خجولة كما تعلمين وبحاجة الى بعض الوقت لأتعود على كل جديد، حضوصاً وأنّ فيليب يسافر كثيراً. في الحقيقة، أظنني أشعر بالوحدة».

ورأت آن ماري أنّ لا عجب في ذلك، وأنّ هذا أمر آخر يعود الفضل فيه إلى «إيثان آندور بومونت لويس».

ظنت آن ماري أنها ستتأخر في النوم في اليوم التالي، لشدة ما كانت

مرهقة الليلة الماضية، إلا أنها استيقظت مع طلوع الشمس. ستمضي ساعات قبل أن يقدموا الفطور. لكن بعد العشاء الذي تناولته الليلة الماضية، شعرت أنها بحاجة الآن الى الرياضة أكثر منها الى الطعام.

تسللت من بين ثنيات الكلة الشفافة التي تحميها من البعوض والتي تحيط بالسرير، وراحت تتمتم فيما هي تبحث في درج الخزانة عن ثوب السباحة: «نفترض دوماً أن العرس سيُقام فيما حدسي ينبئني بأنه قد لا يُقام إذا ما شاء السيد الرئيس ذلك».

عندما نظرت الى الخارج، رأت مياه بركة السباحة المتألقة مغرية للغاية، لكنها لم تجد في الفيللا، التي تشغلها سولانج، أثراً للحياة. ولعل هذا أفضل، فقد بدت عند انتهاء العشاء شديدة الشحوب، وكأنها لا تنام كفاية.

وقررت آن ماري ألاّ تزعجها فارتدت رداءً فضفاضاً فوق ثوب السباحة وعلقت الكاميرا في عنقها ثم سارت لتغوص في مياه البحر الدافئة التي ستغنيها عن بركة السباحة. لكن بحثها عن طريق يؤدي الى الشاطىء تحول الى إحباط.

قامت بمحاولتين انتهتا بها من حيث بدأت. ووجدت نفسها مرة أخرى على حافة جرف شديد الانحدار نحو الشاطىء. أخيراً، في طريق العودة الى الفيللا، رأت رجلاً عند طرف إحدى برك المياه الراكدة.

كان راكعاً يدير ظهره. وأول ما خطر في بالها أنه أمضى معظم حياته من دون شك وهو يعمل جاهداً لحساب إيثان بومونت. وما غير ذلك يجعله يملك مثل هذا الجسد؟ أو لون البشرة اللامعة هذا؟ وما غير ذلك يسمح لعامل بسيط بالتجوّل في أنحاء القرية وهو لا يرتدي سوى سروال قصير باهت اللون؟

- صباح الخير.

حيته بالفرنسية، وهي لا تعرف كيف يتم التعامل مع بستاني هنا... فقد اكتشفت أمس على العشاء أن مستخدمي البيت يخضعون لنظام صارم.

فالساقي لا يقدّم الأطباق، ورئيس الخدم لا يرفع الأطباق الفارغة. ولعل هذا المستخدم البسيط ذا الوجه المغمور بمياه البركة تقريباً، ممنوع من الكلام مع الضيوف. لا بدّ أنّ هذا هو السبب في تجاهله تحيّتها... إلا إذا كان أصم أو لا يفهم الفرنسية.

اقتربت منه ورفعت صوتها قليلاً وهي تقول بالفرنسية: «عفواً، هل لك أن...؟»

وبانزعاج، أشار بيده إليها أن تخفض صوتها، ثم قال باختصار: «أخفضي صوتك. لقد سمعتك من المرة الأول».

كانت إنكليزيته سليمة مع لكنة خفيفة، لكن سلوكه فظ. فقالت بحدة: «أحقاً؟ وكيف سيتصرف رئيسك برأيك إذا علم مدى سوء تهذيبك مع أحد ضيوفه؟».

فأجاب وهو لا يزال محنياً فوق البركة: «سيتضايق، لكن ليس بقدر ما يتضايق من الضيف الذي يشوّش أثناء عمل دقيق يهدف إلى الحفاظ على أسماك «كوا» حية وبحالة جيدة».

- هل أنت صياد؟

حركة كتفيه العريضتين واهتزازهما جعلاها تتساءل عما إذا كان يصاب بنوع من النوبات العصبية: «بإمكانك أن تعتبريني كذلك».

- بماذا يدعوك رئيسك؟

ردّ بعدم مبالاة: «بلا شيء. لم ينعم عليّ بلقب قط، فأنا غير مهم في نظره ولا أستحق ذلك».

فقالت: «ومع هذا مازلت تعمل هنا. لابد أنك تعشق عملك حتى ترضى بهذا النوع من الإهانة».

- نعم، أيتها السيدة.

ثم أضاف وقد ظهرت في صوته فجأة لكنة كاريبية موسيقية: «السيد يجعلني أطعم السمك وأعتني به، ويعطيني كوخاً أسكن فيه وطعاماً آكله. صياد السمك رجل محظوظ للغاية».

- لا حاجة بك للتهكّم. فليس ذنبي إن كان عملك لا يلقى التقدير الكافي.

ومالت برأسها جانباً وقد أثار فضولها انشغاله التام بالعمل الذي يقوم به: «ماالذي تفعله بالضبط؟»

- هاجم طائر البلشون سمك «كوا» وأنا أصلح الضرر.

- لم أكن أعلم أن هذا ممكن. كيف تفعل ذلك؟

- أجعل السمك يطفو على سطح الماء وبعدئذ أعالج الإصابة.

فقالت ساخرة: «طبعاً، طبعاً. فالأسماك تدرّبت على الطاعة، وهي تبقى ساكنة حتى تنتهي أنت من تضميد جراحها».

- ليس بالضبط. لكنها تبقى مدة كافية لأعقّم الجروح التي أحدثها الطائر.

واقتربت منه فرأت أنه لم يكن يبالغ. رأت سمكة يفوق طولها القدم تتناول الطعام من كفه بسعادة، فيما راح يمسح بيده الأخرى، جرحاً بالغاً في ظهرها.

قالت وقد تأثرت بما يفعله رغماً عنها: «أنت تهتم بها حقاً، أليس كذلك؟»

- أنا أحترمها. فعمر بعضها يفوق الخمسين سنة، وهي تستحق العناية. هل من سبب يجعلك تجولين في البساتين في مثل هذه الساعة؟.

- أنا أبحث عن طريق يؤدي إلى الشاطىء. أودّ السباحة.

- وما العيب في بركة سباحة الضيوف؟

- صديقتي مازالت نائمة ولا أريد أن أزعجها. فقد أرهقت نفسها مؤخراً.

- وكيف؟ ألن تتزوج رجل أحلامها؟

- إن الرجل الآخر الذي يشكل جزءً من الصفقة هو سبب حزنها.

فلامس ظهر السمكة التي يعتني بها سائلاً: «هل هناك رجل آخر في الصورة؟ هذا لا يبشر بالخير».

www.elromancia.com

ـ لا أعني رجلاً آخر من ذلك النوع. ولكن، هذا غير مهم. ماكان لي أن أناقش هذا الأمر معك، فالسيد بومونت لن يعجبه ذلك.

ـ لا، من المؤكد أن هذا الأمر لن يعجب السيد بومونت. ما من طريق الى الشاطىء من هذه الناحية من القرية. إذا أردت السباحة باكراً، فأقترح أن تذهبي إلى البيت الرئيسي وتستعملي البركة هناك.

ـ لا أظن ذلك. لعل سباحة الضيف في بركة الأسرة من دون دعوة، تعتبر تجاوزاً للقوانين.

ـ يبدو عليك أنك تحبين أسرة بومونت. هل تعرفينهم جيداً؟

ـ لا أعرف منهم سوى العريس. حتى أنني لم أتعرف بعد إلى أعظمهم شأناً، إلى السيد الأكبر. لكن ما سمعته عنه لا يجعلني متحمسة لذلك.

مسح يديه بسرواله ثم قفز واقفاً برشاقة. وكان طويلاً جداً: «السيد الأكبر سيستاء إذا ما سمع ذلك».

ـ ومن سيخبره... أنت؟

ضحك واستدار نحوها في الوقت الذي ظهرت فيه الشمس من خلف التلة ما منحها فرصة لتلقي نظرة عليه فكادت تنكمش خوفاً. لم يكن عاملاً عادياً! كان وجهه وجه رجل أرستقراطي بوجنتيه العاليتين. وكان فكه، بالظل الخفيف الذي يكسوه، متناسقاً، وعيناه البالغتا الحيوية تحت حاجبيه الأسودين، أشد ما رأت من العيون زرقة.

لم تكن آن ماري بحاجة الى من يقدّمها إليه لتعرف من يكون. وسألته بضعف: «أنت لا تعمل هنا!»

ـ بل أعمل بكل تأكيد. وعملي شاق في الواقع.

ـ لا، أنت لا تعمل، كما لست صياد سمك. أنت إيثان بومونت!

مال برأسه وسألها: «وأين كُتب أنني لست الإثنين معاً؟»

ياله من أمر لا يصدق! وما أسوأ تصرفها هذا!

ـ لماذا لم تعرّف عن نفسك قبل الآن؟

ـ لأن سماع حديثك مفيد أكثر. هل هناك أمر آخر تريدين أن تخبريني

به عن نفسي؟

فتمتمت وهي تتمنى الموت لشدة الحرج: «لا، ليس لديّ ما أقوله حالياً».

ـ في هذه الحال، إسمحي لي أن أرافقك الى المنزل حيث يمكنك، وبناءً على دعوتي، أن تسبحي في البركة.

ـ أظنني لم أعد أرغب بالسباحة، وسأعود الى بيت الضيوف.

ـ وتزعجين العروس الحساسة؟ لا أحب أن يحصل هذا. هيا بنا ودعينا لا نضيّع الوقت بمناقشة الموضوع. لقد حسمه السيد الأكبر.

***

www.elromancia.com

٢ - رجل الكهف

قالت لاهثة وهي تحاول أن تجاريه في خطواته الواسعة: «من المفترض أن تكون الآن في فنزويلا تنقب عن البترول!».

ـ نحن لا ننقب بل نستخرج البترول!

ـ أنت تعلم ما أعنيه!

كان في لهجته شيء من السخرية حين قال: «نعم. طريقتك في الكلام لا تترك عند الرجل أيّ شك في ما تعنينه».

ورغم أنها تفضل أن تغرز في عينها إبراً على أن تعتذر، إلا أنها أدركت أنّ عليها ذلك: «آسفة لأنني تجاوزت حدودي، وتحدّثت إليك بذلك الشكل وأنا أقابلك للمرة الأولى».

ـ عليك الاعتذار فعلاً. هل أنتم معتادون في العالم الذي جئت منه أن تنتقدوا مضيفكم أمام مستخدميه؟

فقالت: «لا. لكن المضيفين في المكان الذي جئت منه، ليسوا غير مضيافين عادة بهذا الشكل، ولا ينتحلون شخصيات أخرى».

ـ غير مضيافين؟

وارتفع حاجباه بدهشة ساخرة ثم تابع يسأل: «هل مسكنك أقل مما كنت تتوقعين؟ ألم يعجبك الطعام؟ هل عاملك المستخدمون بعدم احترام؟»

ـ كان العشاء رائعاً، والمستخدمون ممتازين وكذلك مسكني.

وراحت تفكر في السرير المزخرف الجميل ذي الأعمدة الأربعة،

بملاءاته القطنية، وكلة البعوض المصنوعة من قماش ناعم يشبه نقاب العروس: «كل ما أتمناه موجود هنا، لكن الجوّ فيه نقص».

ـ إنه شعور وجداني يبدو أن عروس أخي تشاركك إياه. هل لي أن أسألك لماذا؟

ـ فلنقل فقط إنها لا تبدو لي عروساً سعيدة، ونترك الأمر عند هذا الحد.

أمسك أغصان النباتات يزيحها من أمامها لكي تمر، فرأت ممراً ضيقاً تفوح فيه رائحة النباتات وآلاف الأزهار... ورائحته هو.

كانت رائحة الصباح والمياه المنعشة تفوح منه، والقوة الخام تتفجر منه، فبدا وكأنه لا يذوي تحت حرارة الشمس ولا ينحني أمام العواصف التي تكتسح الجزيرة في فصل الأعاصير. إنه عملاق بين الرجال، ليس بسبب حجمه وجماله فقط بل بسبب مزاياه الطبيعية، كالدماثة والقوة والسلطة والثقافة. أشار إليها بأن تتقدمه وهو يقول: «تفضلي، وأوضحي لي ملاحظة قلتها».

تقدمت وهي تتمتم: «لقد نسيتها».

ـ اسمحي لي إذن أن أنعش ذاكرتك. قلت إنك لم تجدي سولانج عروساً سعيدة.

ـ حسناً، وهل تراها أنت كذلك؟

ـ أنا لا أعرفها تماماً لكي ألاحظ ذلك.

ـ أرجوك! حتى الغريب تماماً إذا أزعج نفسه بتفحصها يدرك على الفور أنها غير سعيدة.

هز كتفيه بعدم اكتراث: «خطر في بالي أنها متقلبة المزاج، صعبة الإرضاء. ألا تظنين أنهما صفتان سيئتان في امرأة على وشك أن تصبح زوجة؟».

شقّ عليها أن يتهمها من دون أن يعبأ بمعرفة سبب كل ذلك الكدر. فقالت بتوتر: «سيئتان بقدر السوء الذي سأشعر به إذا وجدت نفسي قريبة رجل مستعد لأن يظن بي الأسوأ!»

ـ إذا كنت قد أسأت الحكم عليها . . .

ـ ما من شك في ذلك! أنا أعرف سولانج منذ أكثر من عشر سنوات. ويمكنني أن أؤكد لك أنها أكثر نساء العالم رصانة واعتدالاً في المزاج. لكن إقامتها معزولة في مكان بعيد عن المنزل الرئيسي، وكأنها مصابة بمرض معد، لا تتماشى مع احترامها لنفسها.

ـ أنا أحافظ على سمعتها.

ـ أنت تعزلها وتجعلها تشعر بأنها غير مرغوب فيها!

فقال بجمود: «هذه سخافة. يمكنها أن تقضي مع الأسرة في البيت الرئيسي قدر ما تشاء من الوقت».

وكانا قد وصلا الى فناء واسع فوقفت ماري آن تتأمل بإعجاب حوض زنابق وردية اللون، ثم تابعت قائلة: «الرهبة تتملكها. تشعر أنها عبء ثقيل خاصة في هذه الأيام وفيليب غير موجود من أجلها».

ـ إذا كانت تظن أنه سيبقى بجانبها على الدوام بعد أن يتزوجا، فسيخيب أملها. لقد اختار فيليب أن يمضي فترة عزوبته خالي البال، ولكي يتحمل مسؤولية حياته الزوجية، عليه أن يعمل ويكد ليتعلم إدارة أعمال الأسرة. وهذا، مع الأسف، يعني غيابه عن الجزيرة.

ـ أحقاً؟أم أنها طريقتك في تدمير زواج لا توافق عليه؟.

لوى فمه باستياء: «لم أجد قط ضرورة لأن أنحط الى درجة الخداع. إذا لم يعجبني أمر ما، فسأفصح بصراحة عن نيتي في تغييره».

من يا ترى يظن نفسه؟ سألته: «وماذا لو لم تستطع؟»

فقال بجمود: «يمكن إيجاد طريقة دوماً. لكن يمكنك أن ترتاحي من ناحية واحدة على الأقل، فلا يسرّني أن تغرق امرأة بريئة في الدموع واليأس. ومهما كان ما يكدّر سولانج، ليس لديها ما تخافه مني. أنا لا أريد لها سوى الخير ومن كل قلبي».

ـ أحب أن أصدق هذا.

قال بكبرياء بالغة جعلتها تخجل من نفسها: «لم أتعوّد الكذب يا آنسة».

لا. لن ينحدر إلى مستوى الكذب. ومهما كانت عيوبه، فهو لن يعرض كرامته للشبهات.

أشار إلى بركة السباحة التي تمتد أمامها كالحرير المتموج: «استمتعي بالسباحة. تبدين وكأنك بحاجة إليها. إن وجهك متوهج للغاية».

* * *

وقف خلف الباب المزخرف الذي يؤدي إلى شرفة غرفة نومه، ومضى يراقبها وهي تصل إلى الناحية القليلة العمق من البركة لتنزل بحذر. بدت في كل النواحي الأخرى كما توقعها بالضبط: وقحة، مندفعة، خشنة وواثقة من نفسها إلى درجة كريهة.

لهذا، أدهشه ترددها في الماء، كما أغاظه في الوقت نفسه. فهو لم يشأ أن يرى فيها أياً من نواحي الضعف. يكفيه ضعف سولانج وحساسيتها المفرطة.

ـ بابا.

انفتح الباب واندفع منه أدريان: «متى عدت إلى البيت؟».

فقال وهو يرفع ابنه بين ذراعيه: «الليلة الماضية».

ـ لم تقبلني قبل النوم!

ـ بل قبلتك لكنك كنت نائماً فلم تشعر.

ـ أخاف عندما تسافر بعيداً يا بابا. ماذا لو نسيت أن تعود إلى البيت؟

وطوّق عنقه بذراعيه بحرارة.

ـ لا تخف يا صغيري، الآباء لا ينسون أبداً العودة إلى أولادهم.

ـ بل ينسون أحياناً. سمعت العمة جوزيفين تقول إن هذا السبب في أن ليس لديّ أم.

شتم زوجته السابقة في سرّه، وقال:

ـ سأكون معك دوماً، يا بني.

وسجّل في ذهنه ضرورة أنّ ينبّه عمته لكي تراقب كلامها أمام الصبي.

تململ أدريان ونزل إلى الأرض ثم أمسك بيد أبيه يشدّها: «علمني السباحة مرة أخرى يا بابا».

عاد ينظر إلى بركة السباحة فرآها وقد غامرت بالابتعاد قليلاً. وكانت تطفو على ظهرها، فيما شعرها ينتشر حول رأسها.

جسدها بالغ الرشاقة وأنوثته مذهلة. وحوّل نظراته وقد عاد إليه الانزعاج: «ليس الآن، يا ولدي. ربما في ما بعد».

ـ لكنك وعدتني بذلك حالما تعود إلى البيت. وقد عدت منذ ساعات.

فتنهد الأب معترفاً بالهزيمة: «أنت على حق».

ـ لقد قلت لي إن عدم الوفاء بالوعد تصرف سيء.

فأخفى ابتسامة: «أنت محق مرة أخرى. لابأس، لقد انتصرت. إمنحني عشر دقائق لأغسل يدي وأغير ملابسي ثم نأخذ درساً سريعاً قبل الفطور».

لعلها تكون قد ذهبت عند ذاك فتصبح البركة لهما وحدهما.

***

التفّت المياه حولها أشبه بكريم دافىء، مريح جداً وممتع جداً. تنفست بعمق الهواء المعطر بشذا الأزهار. وخطر لها أنها مع الوقت قد تتعلم كيف تستمتع بما حولها.

تناهت إليها في البيت قرقعة أطباق خافتة وأصوات وقع أقدام تسرع على الأرض المبلطة بالرخام. لم يكن لديها فكرة عن الوقت، لكن خطر لها أنّ الأوان حان لترحل طالما أنّ الخدم يجهزون الفطور للأسرة.

لم تشأ أن ترى إيثان بومونت مرة أخرى، فقد رأت منه مايكفي ليوم واحد. لكن، وفيما هي تسبح برزانة ووقار لتصل إلى الدرجات في زاوية البركة، إذا بصبي في ثوب سباحة أزرق متألق يندفع عابراً الشرفة وهو يصرخ بفرح وخلفه تماماً كان إيثان يناديه: «انتظر!».

لكن الطفل لم يسمع أو لم يشأ أن يسمع، وبصرخة أخرى اندفع في

الهواء كالرصاصة ثم استقر قرب آن ماري. صفحة المياه الهادئة اضطربت بعنف فصفعتها في وجهها وأعمتها. شعرت بالاختناق فاندفعت إلى طرف البركة، لكنها أساءت تقدير المسافة فغرقت.

كان من السخافة أن يتملكها الذعر إذ يكفي أن تقف لتجد نفسها وقد غمرها الماء إلى نصفها فقط. إلاّ أنّ هذا لم يمنعها من التخبّط والدوران حول نفسها بعنف. لكن هذا العرض المذلّ بهت حين وجدت نفسها فجأة تُجذب من شعرها إلى الأعلى.

وعلى سطح الماء وجدت نفسها وجهاً لوجه مع إيثان بومونت. كان راكعاً وفمه يرتجف بضحكة كتومة وهو يقول: «بلهاء».

فغمغمت: «رجل الكهف. هل من عادتك أن تجر النساء من شعرهن؟».

ـ فقط عندما يتعرضن لخطر الغرق، أو إيذاء أنفسهن بشكل خطير.

ثم تركها ووقف، فلاحظت أنه غيّر السروال القصير وارتدى ثوب سباحة أسود.

ـ إبقي حيث أنت وسأعطيك درساً في النجاة من الغرق.

ـ لا، شكراً.

ما كان لها أن تضيّع وقتها في قولها هذا لأنه تركها، وابتعد إلى الناحية الأخرى من البركة. كان يسير طويل القامة، عريض الكتفين، تنضح منه رجولة نادرة.

لفت انتباهها رذاذ ماء بجانبها، فالتفتت لترى الصبي يرفس الماء بعنف وهو يقول مزهواً بابتسامة عريضة حلوة: «ذاك أبي، بإمكانه أن يعلمك السباحة. فهو يستطيع أن يفعل كل شيء».

ربما ليس كل شيء، كما أخذت تفكر وهي تلتفت مجدداً إلى إيثان الذي غاص في البركة بهدوء.

صعد إلى سطح الماء بجانبها، وقال: «الدرس الأول... تعلمي أن تكوني مرتاحة ووجهك تحت الماء».

www.elromancia.com

فقالت بفتور: «هذا لن يحدث أبداً، معي على الأقل».

ـ هذا ما قاله أدريان في البداية، لكنه سرعان ماغيّر رأيه. هل تعرّفت إلى ابني؟

ـ رجوت أن أراه الليلة الماضية، لكننا أنهينا العشاء بعد خلوده إلى النوم.

فقال وهو يمسك بيد ولده: «إسمحي لي إذاً أن أعرفكما إلى بعضكما البعض. هذا أدريان الذي بلغ الخامسة من العمر لتوّه».

ـ مرحباً أدريان. أنا آن ماري.

وابتسمت له. كان صبياً رائع الجمال، بشعره الأسود المشابه لشعر أبيه وعينيه الكبيرتين السوداوين بأهدابهما الطويلة.

بادلها الصبي ابتسامتها، لكن إيثان قطب جبينه بعدم رضى: «أفضّل أن يدعوك آنسة».

أوشكت أن تقول له إن ما يفضله لا يهمها، لكنها رأت أنّ من الأفضل ألاّ تقول كلاماً كهذا أمام الناس. وهكذا، احتفظت بابتسامتها التي سببت لها وجعاً في خديها، وقالت: «يجب أن أعود إلى غرفتي. لا بد أن سولانج استيقظت الآن وهي تتساءل أين عساي أكون».

فقال وهو يمسك بمعصمها: «لا داعي للعجلة. لقد طلبت منها أن تنضم إلينا على مائدة الفطور. سوف تصل في أي لحظة. لكننا سنشغل الوقت حتى وصولها، ونبدأ بأول درس سباحة. والآن، نبدأ...»

فقالت: «أنا واثقة من أن نيتك طيبة يا إيثان».

وأضافت بمتعة خفية وهي ترى فمه يتوتر لذكرها اسمه الأول بإلفة: «مثلما لديك خياراتك، لديّ خياراتي أنا أيضاً. وأفضل ألاّ أستغل عرضك هذا، خاصة إذا عنى هذا أن تهمل ابنك، بينما يبدو واضحاً أنه يتوقع أن يمضي يومه معك».

تركها لدقائق لكي يرسل ابنه إلى مقعد تحت مظلة، ثم عاد إليها قائلاً بعناد: «لا يمانع أدريان في الانتظار دقائق. في البدء، سأساعدك على وضع

قناع على وجهك يمكّنك من الرؤية تحت الماء من دون أن تنزعج عيناك».

ـ لا أريد وضع قناع. لا أريد درساً. هل تريدني أن أفسّر لك أكثر؟

ـ أنت خائفة.

ـ نعم، أنا خائفة. هل هذا يرضيك؟

ـ لا، لا يرضيني. طالما أنت في أملاكي، أنا مسؤول عن سلامتك ويمكنني أن أضمن ذلك بمنعك من استعمال حوض السباحة. لكن لراحتك واطمئنان نفسي، يجب أن أصر على أن أعلّمك أصول النجاة من الغرق.

وسكت وهو ينظر إليها متفحصاً بسخرية: «إذا تمكّن صبي في الخامسة من أن يتعلم ذلك، فلا بدّ أنّ امرأة في سنك قادرة على ذلك هي أيضاً».

حملقت فيه لحظة بصمت، وعندما اتضح لها أنه لن يرضى بالصمت جواباً، قالت: «رغم أنني أكره الاعتراف بذلك، إلاّ أنك على حق».

اختار أحد القناعين اللذين أحضرهما ابنه، وقال باستعلاء يثير الغيظ: «طبعاً أنا على حق، والآن فلنضعه».

واقترب منها ليضعه على وجهها ويشّده باحكام: «كيف تشعرين به؟».

قالت وقد تملّكتها قشعريرة بسبب لمسته: «أظنه ممتازاً».

ـ هذا عظيم.

وضع القناع الآخر بسرعة ثم أمسكها بكلتيّ يديها وابتعد عن الدرجات.

تملكها الفزع على الفور وقالت ضارعة وهي تقاومه: «لا تجرني إلى المياه العميقة».

ـ ارتاحي يا آنسة. كل ما سنفعله هو أن نبقى جامدين تماماً ونحن ننظر إلى قاع البركة. بهذا الشكل...

أخذ نفساً عميقاً، ثم أنزل وجهه تحت الماء ونضخ عدداً من الفقاعات. بعدئذ، رفع رأسه وقال: «الأمر بسيط جداً وآمن».

ـ إنك تجعله يبدو سهلاً.

ـ لأنه سهل فعلاً. جربي لتكتشفي ذلك بنفسك.

اتّبعت إرشاداته بحذر فدهشت، ولم تجد الأمر مفزعاً بقدر ما توقعت. كان القرميد في قاع البركة يلمع في أشعة الشمس. وحين شعرت بالحاجة الى هواء نقي، رفعت وجهها ببساطة وملأت رئتيها بالهواء.

قالت مسرورة تماماً بإنجازها الصغير هذا: «لا أصدق أن بإمكاني القيام بذلك».

ـ لكنك تفعلين، وبشكل جيّد. والآن سنبدأ المرحلة التالية.

ومن دون إنذار أوقفها على قدميها.

ـ آه!

أطلقت صرخة فزع وهي تجد نفسها تبتعد عن الدرجات وقد أسرتها قبضته.

لكنه لم يدع الخوف يهزمها، فأمرها بصوت منخفض ذي تأثير مغناطيسي وهو يسحبها بجانبه بسهولة: «ركزي انتباهك، وتذكري... ارفعي رأسك وخذي نفساً، ثم أخفضي رأسك وازفري».

فعلت ذلك، ولشدة استغراقها في اتباع تعاليمه لم تدرك مدى ابتعادهما حتى رأت ظلاً على الماء. وعندما نظرت إلى أعلى، رأت نفسها تحت اللوح المخصص للغطس أيّ في الجهة العميقة من البركة. تملّكها ذلك الخوف المألوف مرة أخرى، لكنه شدّد قبضته قبل أن يتغلب عليها هذا الشعور ثم قال يخفف عنها: «أنت آمنة تماماً. لن أدع شيئاً يحدث لك».

قالت بلهفة: «أنا أصدقك».

كانت فعلاً تصدقه. ولسبب غير مفهوم، وضعت ثقتها الكاملة فيه. منذ سنوات، منذ كانت طفلة، لم تعرف مثل هذا الشعور بالأمان الذي أحبته حقاً.

لا بد أنّ صوتها كشف شيئاً من مشاعرها أذ رفع قناعه، ولأول مرة منذ تعارفهما، ابتسم. لم تكن المشكلة الآن في أنها نسيت أن تتنفس بشكل صحيح، إنما في أنها نسيت أن تتنفس كلياً. فابتسامته غيّرته تماماً ولم يعد

يبدو وسيماً وحسب بل أصبح رائعاً، لا عيب فيه، وجمدت إعجاباً وأخذت تحدق إليه كالمسحورة.

وببطء، ترك أصابعها بتردد يمائل ترددها في ترك أصابعه، وقال وهو يدفعها بخفة: «محاولة أخرى ثم يحين دور أدريان. اسبحي أنت الى السلم هناك».

وقبل أن يرتفع صوتها بالاحتجاج أضاف يقول: «إما هذا وإما أن تعودي إلى الجهة القليلة العمق وهي تبعد خمسة أضعاف هذه المسافة؟».

هل منحتها الكبرياء الشجاعة لتفعل ما طلبه منها، أم دفعها إلى ذلك رغبتها في كسب احترامه؟

وصلت إلى السلم وهي تلهث وقلبها يخفق بعنف، فتمسكت بأول درجة ثم أزاحت القناع عن وجهها. كانت تدرك أنّ نظراته مسمرة عليها وهي تصعد الدرجات، فقالت له: «شكراً للدرس».

وبلا مبالاة مصطنعة، سارت إلى حيث كانت سولانج تنتظر مَع أدريان، على ضفة البركة وقالت وهي تتناول منشفة: «ظننتك لن تأتي إلى هنا أبداً».

التوى فم سولانج بابتسامة: «لا أظنك افتقدتني».

انتظرت آن ماري حتى قفز أدريان بين ذراعي أبيه، وأخذ يتخبط سعيداً في الماء ساعياً خلف كرة حمراء ضخمة تطفو على الماء، ثم سألت: «ماذا تعنين بذلك بالضبط؟».

ـ بدوتما أنت وسلفي مستقبلاً، مأخوذين ببعضكما البعض بحيث لا يمكن أن تلاحظا أي شخص آخر.

ـ أصر على أن يعلمني استعمال قناع الوجه.

وأخذت تعتصر أطراف شعرها ثم لفت نفسها بمنشفة قائلة: «من المؤسف أنّ ما من أحد علمه أن يقبل بالرفض جواباً. إنه متسلط للغاية».

ـ كما أنك مضطربة على غير عادتك.

فقالت رافضة أن تناقش صحة قولها هذا: «أمري غير مهم، كيف

حالك هذا الصباح؟ تبدين أكثر بشاشة مما كنت عليه».

ـ هذا لأنك هنا، فلم أعد أشعر بالوحدة. الفطور جاهز على الشرفة، فهل نذهب؟

اختلست آن ماري نظرة إلى إيثان الذي كان لا يزال في بركة السباحة مع ابنه: «ألا ينبغي أن ننتظر حتى يمنحنا السيد إذناً بأن نأكل؟».

ـ ليس غولاً، يا آن ماري! ولن يستاء إذا شربنا القهوة وحدنا. إنهي تجفيف جسمك ثم دعينا نذهب. لن أستيقظ بشكل صحيح إذا لم...

فقاطعتها آن ماري ضاحكة وهي تضع عليها عباءتها ثم تمسك بذراع صديقتها: «إذا لم تشربي قهوتك مع الحليب. مازلت أتذكر!»

***

اصطدمت الكرة الضخمة بكتف إيثان ثم ارتدت إلى الماء، فصرخ أدريان معنفاً: «بابا، أنت غير منتبه!».

ـ أعلم هذا.

وكيف يمكنه ذلك وضحكاتها تتعالى كالموسيقى وحركات جسدها الرشيقة تلهيه وتذهله؟ وبما إنه لا يستطيع أن يخبر ابنه بذلك، حمله ووضعه على حافة البركة ثم قال: «لأنني أفكر في الطعام. ستقدم جين «كريب فروت» مع الفطور. سأتسابق معك إلى الشرفة».

عندما وصلا كانت المرأتان تثرثران بنشاط، وبدت وجنتا سولانج حمراوين على غير عادة. فقال بعد أن حيّاها: «يبدو عليك الارتياح التام هذا الصباح، يا صغيرتي، فهل وجود الآنسة باركلي هنا يسرك؟»

ـ نعم، أنا سعيدة جداً.

ـ أبقدر سعادتك عندما يكون فيليب هنا؟

وكالعادة، لم تدرك أنه يمازحها وحسب فقالت بفزع: «هذا غير ممكن، يا إيثان! لا يمكن لأحد أن يحلّ مكانه».

ـ يسرّني سماع هذا، لا سيّما أنه اتصل هذا الصباح ليقول إنه سيصل

الليلة قرابة موعد العشاء.

أشرق وجهها. كانت فتاة جميلة فعلاً، ولا شك أنّ هذا ما لفت نظر فيليب لأول مرة. لكن ماأقلق إيثان هو ضعفها الواضح وحساسيتها المفرطة، فضلاً عن رغبتها بإرضاء الآخرين بأي ثمن، وقلة ثقتها بحكمها. وهذه الصديقة، آن ماري باركلي، ذات السلوك غير المتحفظ لم تعجبه تماماً. وكلما أسرع فيليب في الحضور وشغل سولانج كلما كان ذلك أفضل. قال وهو يجلس أمام ضيفته: «والآن، أخبريني عنك يا آنسة».

***

www.elromancia.com

٣ - كن عدوي!

سألته آن ماري بوقاحة، وقد ساءها تصرفه الاستعلائي: «ماذا تريد أن تعرف؟».

هزّ كتفيه: «بقدر ما يهمك أن تخبريني، فلنبدأ بعملك. فهمت أنك صممت جهاز سولانج».

ـ نعم.

ـ هل قمت بذلك بحكم مهنتك، أم أنها خدمة بين صديقتين؟

فقالت بحدة: «الإثنان. أنا خرّيجة إحدى أهم مدارس تصميم الأزياء في العالم».

ـ أنا واثق من هذا. أين تعملين؟

ـ في ڤانكوڤر، في ساحل كندا الغربي.

ـ أعرف المدينة. فقد زرت مدينتك الجميلة مرات عدة واستمتعت بالزيارة. لكنني لم أكن أظنها مركزاً لتصميم الأزياء. في أي دار أزياء تعملين؟

ـ في داري.

وكاد يلوي شفته ازدراء: «فهمت».

فسألته باللهجة نفسها: «أحقاً فهمت؟ إذن، لا شك أنك تعلم أنّ تصاميمي فازت بعدد من الجوائز التقديرية».

وتدخلت سولانج قائلة: «عملت آن ماري في صناعة الأفلام في

هوليوود لفترة، حتى أنها رُشّحت لجائزة الأوسكار مرة».

ـ هوليوود؟

ولوى شفته هذا المرة وكأنه رأى شيئاً يثير الاشمئزاز يزحف على طبق المانغو الذي وضعه رئيس الخدم أمامه: «صناعة الأفلام؟».

فقالت آن ماري، وقد شعرت بالشماتة لفزعه الذي لم يستطع إخفاءه: «نعم، لطالما اهتممت بالملابس المسرحية».

ـ لكنك لا تعملين حالياً في عالم المسرح؟ فقد انتقلت إلى زبائن... أقل شهرة!

ـ ليس تماماً. إن صناعة الأفلام مزدهرة في ڤانكوڤر أيضاً، وهذا ما أعادني إلى مسقط رأسي. ومن زبائني عدد من نجمات السينما الشهيرات فضلاً عن نساء معروفات في ميادين الحياة الأخرى.

فقال متجهماً وهو يرفع عينيه إلى أعلى: «كما أنك صممت ثوب عرس سولانج. يا إلهي!»

فسألته: «لماذا يزعجك ذلك يا إيثان؟ أؤكد لك أنّ بإمكاني أن أصمم ملابس عرس مقبولة للعروس ووصيفاتها».

فقال وهو يزمّ فمه الجميل: «نحن مجتمع صغير في «بيلليفلير» وللتقاليد دور كبير في حياتنا. العرس... خاصة عرس آن بومونت... هو حدث اجتماعي هام وذو دلالة. إن لأسرتي مبادىء معينة تتمسك بها».

فقالت متهكمة: «يا للعار! ففي المكان الذي جئت منه، العرس هو مجرد حدث سعيد يجمع أحباء العروسين ليحتفلوا بزواجهما. ورغم أنني لا أتوقع أن ترضى بما سأقوله إلا أنه أيضاً مناسبة تحوز فيها العروس على الكثير من الاهتمام. إنه، في الواقع، يومها هي».

ـ ما أسوأ حظ الرجل الذي اختارها عروساً له!

ـ لماذا؟

ـ لأن مثل هذا الوضع يظهر تجاهلاً واضحاً لما قد يرغب فيه العريس... وهذا لا يبشر بانسجام جيد في الزواج.

قالت متهكمة، متجاهلة شهقة ذعر من سولانج: «يا لهذا الهراء!».

ثم أردفت: «الزواج هو التزام مدى الحياة يتوقف نجاحه على مدى مراعاة واحترام كل واحد للآخر. أما العرس فهو ليوم واحد تحتل فيه العروس موقع النجومية، وأظن أن لديك خبرة في ما يتعلق بذلك».

ـ وهل لديك أنت الخبرة؟

ـ أنا لم أتزوج قط إذا كان هذا ما تعنيه.

ـ إذاً ستعذرينني إذا ما تقبلت رأيك هذا بشيء من التحفظ.

فقالت بوجه مشرق: «سأغفر لك طبعاً بقدر ما كنت لتغفر لي لو تقبلت رأيك بتحفظ أنا أيضاً. وبما أنك مطلق، فهذا يدل حتماً على أنك لا تعرف الكثير عن كيفية إنجاح الزواج، أنت أيضاً».

عندئذ، لمعت عيناه بحدة وقال: «يبدو أننا خرجنا عن الموضوع، الذي هو بالتحديد، عرس الأسرة».

ـ وأنت خائف من أن أحوله إلى أضحوكة هوليوودية.

أمال برأسه بموافقة ضمنية جارحة وقال: «لم أقصد أن أهينك».

ـ إهانتني؟

لاحظت أدريان وهو يحاول أن يستوعب كل ما يقال، فكبحت طبعها الحاد ثم قالت تتصنع العذوبة: «أنت مؤذ بشكل واضح. ولكن على أي أساس؟ فأنت تكاد لا تعرف عني شيئاً».

فقال بمرح وكأنه يحاول أن يلطف التوتر: «أنا أعرف أنك تخافين من الماء».

فقالت: «لكنني لست خائفة منك، ولا يهمني رأيك بي. أنا هنا لدعم سولانج معنوياً، لا لكسب استحسانك».

ـ يعجبني وفاؤك. لكن، ولمعلوماتك الخاصة فقط، يا آنسة باركلي، أنت لست الوحيدة التي يهمها أمر سولانج. كلنا نريد أن نراها سعيدة.

ـ ليس لدينا إذاً ما نختلف عليه. أليس كذلك يا إيثان؟ وما دمت أخاطبك باسمك الأول، فيمكنك أن تخاطبني باسمي الأول أي آن ماري.

عندئذ، غص بقهوته، ثم قال: «شكراً. والآن، أخبريني يا آنسة ما هو برنامجك لبقية النهار؟».

ـ سأعمل على خياطة ثوب عرس سولانج.

ـ هل ترغبين في تناول الغداء معنا، وربما نقوم بجولة في أنحاء الجزيرة بعد الظهر؟

ـ لا، شكراً.

رفع حاجبيه بدهشة خفيفة. من الواضح أنه لم يتعود أن يرفض أحد دعوته. حسناً ربما من الأفضل أن يتعود على ذلك. هذا ما خطر لها وهي تنهض عن المائدة، ولأنه سيد مهذب، نهض واقفاً لوقوفها وقال: «هل ترحلين بهذه السرعة؟ أرجو ألا أكون السبب. لأننا لم نتفق في الرأي...».

ـ لا تكن مغروراً إيثان! لا علاقة لك برحيلي. لدي عمل يجب أن أقوم به، كما سبق وقلت لك.

ـ جيد جداً. هل تريدين أن أرسل لك خياطة البيت لتساعدك؟

ـ هذا غير ضروري، فأنا قادرة تماماً على إنهاء هذا الثوب وحدي.

مضت لحظة أخذ يستوعب فيها فكرة أنّ العالم يمكن أن يدور من دون قيادته، وبدا أن الفكرة لم ترق له. وقال أخيراً: «هل لديك كل ما تحتاجينه من المعدات؟».

ـ تماماً... ماعدا...

ـ آه.

وتكرم عليها بابتسامة اخرى مليئة بالرضى والغرور وكأنه يقول (كنت أعرف أن هذه الاستقلالية كلها لن تنفعك دوماً».

ـ سأحتاج إلى منضدة للكي.

ـ لدينا خادم يهتم بالكي.

ـ أنا الوحيدة التي تلمس ما أخيط.

ـ كما تشائين.

وأمال رأسه مجدداً، وكأنه يقدم خدمة عظيمة لعبد لا يستحقها: «هل

www.elromancia.com

من خدمة أخرى أقدمها لك؟».

ـ نعم.

أرادت أن تصعب عليه الأمور لتثبت له أنه ليس بالقوة والمقدرة التي يظنها: «أحتاج الى طاولة للعمل، طولها متران ونصف وعرضها متر على الأقل، ولها غطاء من الموسلين لحماية القماش الرقيق الذي أخيطه».

ـ سأرسل ما طلبته إلى جناحك على الفور.

ردّه بدد أي وهم تملكها بأن بإمكانها أن تنتصر عليه: «طبعاً، أنت تدركين أن هذا سيجعل غرفة جلوسك ضيقة؟».

ـ ما من مشكلة، أنا واثقة من أنّ سولانج لن تمانع في أن أشاركها غرفة جلوسها فيما لو احتجت لذلك.

ـ إذا كان لديها أي مانع فيمكنك أن تقصدي البيت هنا متى شئت.

رغبت في أن تقول له إنها تفضل أن تعيش في كوخ قذر على الشاطىء على أن تمضي لحظة أكثر مما يضطرها عملها، تحت سقفه. لكنها عندما رأت سولانج تتابع حديثها متوترة، اكتفت بأن تقول: «شكراً. أقدر لك عرضك هذا».

ـ أهلاً وسهلا.

وانحنى يعبث بشعر ابنه: «سأرتب أمر إرسال الطاولة في أسرع وقت. هيا بنا، يا أدريان».

نظر الصبي إلى سولانج راجياً: «أحب أن ألعب في بيت سولانج؟».

ـ ستعرقل طريقهما. بما أن الآنسة باركلي هنا، فهي ستشغل وقت سولانج كثيراً.

ـ لن يعرقل طريقنا على الإطلاق.

وابتسمت للطفل: «دعه يأتي. فهكذا ستسنح لنا الفرصة لنتعرف إلى بعضنا البعض بشكل أفضل».

ـ حسناً جداً.

ومرّ من خلفها ثم وضع يده على كتف سولانج بحنان مدهش قائلاً:

«اتصلي بنا حين يصبح متعباً يا عزيزتي، ولا تدعيه يرهقك».

قالت آن ماري وهي تنظر إلى إيثان الذي صعد الدرجات مسرعاً ثم توارى في المنزل: «يبدو وكأنه يهتم لأمرك تقريباً».

ـ إنه يهتم بي. سبق وأخبرتك أنه رقيق جداً وحسن النوايا.

وغطت سولانج فمها تخنق ضحكة ثم أضافت: «لكنك تعمّدت إغاظته وقد نجحت في ذلك. كدت أصاب بنوبة قلبية للطريقة التي كنتما تهاجمان بها بعضكما بعضاً».

ـ إنه من نوع الرجال الذي يثير أسوأ ما فيّ.

ـ هل هكذا تسمين ما جرى؟

وهذه المرة لم تحاول سولانج أن تخفي الهزل في صوتها: «بدا وكأنكما شخصان يجدان ملاذاً في العداء، لأنهما لا يريدان أن يعترفا بانجذاب أحدهما إلى الآخر».

ـ هذا أسخف شيء سمعته!

ورغم أن جوابها حمل نبرة تأكيد مقنعة، إلاّ أن آن ماري لم تستطيع أن تمنع الرعشة المزعجة التي تملكتها. لقد أثارت عينا إيثان الثاقبتان اضطرابها، أكثر مما تريد أن تعترف. لكن، إن كان إيثان بومونت وسيماً ورقيقاً خارجياً، فهذا لا يعني أنه ليس مليئاً بالعيوب داخلياً. وهي لا تريد أن تعرّض قلبها للخطر.

* * *

سمع رنين الضحكات قبل أن يصل إلى دار الضيوف. كانت ضحكة أدريان عالية بالغة الحيوية والنشاط، وضحكة سولانج رقيقة... أما ضحكتها هي، فكانت موسيقية وفاتنة.

اجتاز الممر بخفة ثم وقف لحظة في الظل فرأى على الفور سبب تلك الجلبة الضاحكة كلها. رأى قطيطة لا تحسن المشي بعد، تلاحق بالوناً مربوطاً بطرف خيط حول معصم أدريان. شعر بطعنة ألم في قلبه حين لاحظ إشراقة

وجه ابنه فحياة ابنه تشهد حزناً كثيراً وقليلاً من الفرح. وكيف يمكن لرجل أن يوضح لطفل في الثالثة من عمره أن أمه تعبت من لعب هذا الدور فرحلت ولن تعود أبداً؟

لقد تحوّل إحساس إيثان بالخيانة إلى عدم مبالاة منذ وقت طويل. فإذا حدث وفكر في زوجته السابقة، وهذا نادراً ما يحصل، لا يشعر نحوها سوى بالشفقة والاشمئزاز. لكن ما فعلته بابنهما ترك في فمه مرارة دائمة. لقد مضى على هربها سنتان، ومع أن أدريان لم يعد يسأل عنها، إلا أن الضرر الذي أحدثته ترك أثره على الطفل.

حاول إيثان طبعاً أن يقوم بما في وسعه، فبذل جهده لكي يؤمّن لابنه عالماً آمناً مشبعاً بالمشاعر. لكن عندما تراوده الاحلام المزعجة وتملأ ليله رعباً، كان يفتقد لمسة المرأة الحنون وصوتها الرقيق. وعندما رأى كيف استند ابنه على تلك الزائرة الأميركية وأخفى رأسه غريزياً في صدرها عندما قفزت القطيطة عليه، أدرك إيثان مجدداً ما ينقص في حياة إبنه.

قال لها: «لا تقفي في الشمس، يا آنسة».

واندفع نحوها ليس اهتماماً بمصلحتها بقدر ما هو بسبب الغيرة التي تملّكته فجأة. فقد خطر له أن ليس من حقها أن تحاول الحلول مكانه، فهي غريبة ستمرّ مرور الكرام في حياتهما ولن تنتمي إليهما أبداً. وهو لا يريد أن يتعلق ابنه بها، فتتركه بعد أن تشعر بالملل من لعب دور المربية.

ـ الشمس تحرق بشدة في هذا الجزء من العالم الشقراوات أمثالك بسرعة.

قالت من دون مبالاة وهي تداعب رقبة أدريان: «إني أستعمل كريماً يقي من أشعة الشمس».

كانت قد استبدلت ثوب السباحة بثوب أصفر معلق بكتفيها بحمالتين رفيعتين. كانت ذراعاها عاريتين وقدماها حافيتين، وقد لاحظ إيثان رغماً عنه أنّ قماش الثوب يلتصق بخصرها النحيف.

قفزت القطيطة مرة أخرى على البالون، فأخطأت الهدف وأصابت

أصابع قدميها، فأخذت تضحك فيما راح أدريان يتلوّى في حجرها ضاحكاً.

ناداه أبوه بحدة أكثر مما كان في نيته: «هذا يكفي يا أدريان! إنك تزعج الآخرين».

تجنّبت آن ماري القطيطة، واحتضنت الصبي وأخذت تمرّر أصابعها في شعره وترفعه عن جبينه: «لا، إنه ليس مزعجاً. نحن نمضي وقتاً رائعاً في اللعب مع بعضنا البعض، أليس كذلك يا أدريان؟».

ـ نعم.

والتصق الصبي بها أكثر وأحاط عنقها بذراعيه. فقال إيثان والغضب يكاد يخنقه: «ظننتك هنا للعمل، يا آنسة».

ـ هذا صحيح.

كانت حلاوة صوتها تتناقض مع النظرة الغاضبة التي رمقته بها وأردفت: «لكنني مسؤولة عن نفسي، ولا أحتاج إلى إذن من أحد إذا أحببت أن أتوقف عن العمل وأضيّع وقتي بالمرح».

اذا لم يلجم لسانها بسرعة فستخلق المزيد من المتاعب: «لكن هذا لا يمنحك الحق في إلغاء إرشاداتي لابني».

ـ يا إلهي!

وتركت أدريان من بين يديها ثم قالت وهي تربت على ظهره: «السيد يناديك يا حلو، فلا تدعه ينتظر. ولكن عد بسرعة».

عندئذ، تدخلت سولانج وهي تنظر إليه بخشية: «أنا أعلم مدى انشغالك يا إيثان. ولو أنك اتصلت هاتفياً لرافقت أدريان إلى البيت ووفرت عليك عناء الحضور لتأخذه».

ـ كنت قادماً إلى هنا على أيّ حال.

قال ذلك متمنياً لو أنها لا تتعامل معه طوال الوقت بهذا الحذر وكأنها تسير على بيض: «أردت أن أتأكد مما إذا كانت الآنسة باركلي قد حصلت على كل ما تحتاجه لعملها».

فردّت آن ماري بفتور وهي تنهض وتسوّي تنورة ثوبها: «نعم، حصلت عليها».

حوّل نظراته عنها: «هل المنضدة مناسبة؟».

ـ تماماً، شكراً.

سألته سولانج: «هل تحب أن ترى ثوب عرسي؟ إنه رائع حقاً، يا إيثان».

فأجابتها صديقتها المتسلّطة: «هذا لايهمه. لديه أمور أكثر أهمية ليقوم بها».

لم يعرف ما الذي أثار فضوله، هي أم عملها، فقال: «بل هذا يهمني بكل تأكيد! لا شيء يسرني أكثر من سرور أسرتي، يا آنسة. لا مانع لدي أبداً أن أرى الثوب».

حدّقت إليه آن ماري وهي تزم فمها عناداً، وظن للحظة أنها سترفض. لكن بعد لحظة تفكير، سارت أمامه إلى الڤيلا التي تقيم فيها وأشارت إليه بالدخول. وقف في المدخل وأخذ يحدق غير مصدق إلى المشهد الماثل أمامه. ففي ما عدا الردهة التي كانت كالعادة تقريباً، لم يكد يعرف المكان. لقد تبخر ترتيب الأثاث الأنيق، وحلّ مكانه آلة خياطة ومكواة. كما لم يكد يميّز الصالون الرئيسي، فقد أزيحت قطع الأثاث كلها وألصقت بالجدار لتفسح المجال لمنضدة العمل، ولم يبق سوى مساحة صغيرة بحيث لا يستطيع شخصان المرور من دون أن يحتكا ببعضهما البعض، وهذا أمر من الأفضل أن يتجنبه.

ـ حسناً، ذاك هو الثوب وهو محتشم كما ترى.

وأشارت الى دمية في الزاوية ترتدي ثوب زفاف.

فقال: «لم أشك في ذلك قط».

ـ آه، من فضلك.

وأضافت وهي تتقدم من الثوب لتجري عليه بعض التعديلات: «أنت لم تتوقع شيئاً حسناً، السبب الوحيد الذي جعلك تبدي رغبة في رؤية عملي

هو أن تثبت بشكل قاطع مدى عدم استعدادي للقيام بالمهمة الموكلة إليّ».

ـ هذا ممكن.

وتقدم من الثوب فلاحظ الدبابيس التي تثبت قماش الثوب الرقيق في موضعه. ورغم جهله بأزياء النساء، استطاع أن يرى جمال تصميم صدر الثوب وتنورته: «أعترف بأنني توقعت أن يكون الثوب قد انتهى تقريباً، لكن يبدو أنّ لديك الكثير من العمل الذي ينبغي إنجازه».

قالت وكأن مثل هذا العمل تافه لمن في خبرتها: «إنه لا يحتاج سوى إلى الخياطة ببعضه البعض».

ثم تابعت تقول: «أردت أن أتأكد من أنه يناسب العروس تماماً قبل خياطته، فهذا القماش رقيق جداً ولا يحتمل الفتق والتعديل».

ـ وهكذا قمت بالخطوات الأولى العملية مسبقاً على الدمية؟ كيف استطعت وضعه في حقيبة الثياب؟

فقالت بوقاحة: «لم أفعل ذلك، بل وضعت معداتي في صندوق صغير. ورغم أن الصندوق يتسع لأشياء كثيرة، إلاّ أنني لم أستطع حشر نفسي فيه. لكن اذا كنت تشير الى الدمية، فقد فككتها الى أجزاء ووضعتها في الصندوق بسهولة».

قال من دون أن يتمكن من كبح ابتسامته: «يبدو أننا لن نستطيع أن نتفاهم، يا آنسة».

فأجابت وفمها مليء بالدبابيس: «آه، لا أظن ذلك. أظننا نفهم بعضنا البعض تماماً. ولو أنّ الأمر بيدك لكنت في طريقي عائدة إلى بيتي الآن».

وألقت عليه نظرة تتحداه فيها أن يجرؤ على الإنكار، لكنه لم يشعر بميل الى ذلك، بل قال: «نعم، هذا صحيح. لكن يبدو جلياً أن هذا لن يحدث! لذا، ماذا يمكننا أن نفعل لنعدّل هذه العلاقة السيئة بيننا؟».

أخرجت الدبابيس من فمها وغرزتها في الحشية المعدّة لذلك: «هل تعني أنك لن تحاول إنكار ما يحدث؟».

ـ كلا بكل تأكيد. ولديّ سبب وجيه يجعلني لا أثق بك، لكنني فشلت

في أن أدرك سبب عدائك لي.

فتحت فمها إما في دهشة ساخرة وإما حيرة ورغم أنه كان يودّ أن يستغل ارتباكها ليفوز إلاّ أنه وجد أن انتباهه موجه الى مدى نضوج شفتيها واحمرارهما، ما جعله يشعر بالضيق.

وضعت قبضتيها على وركها: «وما هو السبب الذي يمنعك من أن تثق بي؟».

ـ لست مستعداً لمناقشة هذا الموضوع حالياً.

ثم ألقى نظرة ذات معنى على أدريان الذي كان يلعب مع القطيطة في المدخل المسقوف وأضاف: «من الأفضل أن أسألك لما هذه العدائية منك؟».

فقالت بجمود: «الجواب سهل. وهو أنك لست من النوع الذي يعجبني، فأنا لا أحب الرجال المستبدين، لكن هذا ليس مهماً مثقال ذرة ما دمت لن أبقى هنا سوى لأسابيع قليلة، وعندما ينتهي العرس لن نرى بعضنا بعضاً مرة أخرى».

ـ أنا لا أوافقك الرأي. فحتى يوم واحد يمكن أن يبدو طويلاً جداً، إذا ما وجد شخصان نفسهما برفقة بعضهما البعض في أغلب الأحيان. فنحن سنمضي قدراً كبيراً من الوقت معاً في الأسابيع القادمة.

ـ لماذا؟ لسنا الشخصين اللذين سيتزوجان.

ـ هذا صحيح، وأنا أحمد الله على ذلك من أعماق قلبي.

وسرّه أن يرى احمرار وجهها لجوابه ثم تابع: «لكن الأعراس، ولا سيّما أعراس آل بومونت، تتجاوز الطقوس الكنسية أو حفل الاستقبال. وأنت وصيفة العروس في مختلف المناسبات الإجتماعية منذ الآن وحتى يوم العروس. ولهذا، لا بدّ أن توافقيني الرأي على أننا بحاجة الى نوع من الهدنة».

ـ إني قادرة تماماً على رعاية نفسي. وشكراً على أيّ حال. لكن لا، يا إيثان، فأنا لا أحتاجك ولا أريدك أن تتصرف وكأنك مرافقي.

وفجأة، سمعا صوتاً ثالثاً فتياً مليئاً بالاضطراب فاستدارا ليجدا أدريان

واقفاً في الردهة: «ألا تحبين أبي، يا آن ماري؟».

ـ آه، يا حبيبي..!

واغرورقت عيناها الزرقاوان الكبيرتان بالأسى وهي تستدير مسرعة حول طاولة عملها ثم تركع وتحيط وجهه بكفيها: «أنا لم أقل إنني لا أحبه».

ربما ليس حرفياً! وبلغ غيظه من نفسه قدر غيظه منها، لأنه نسي بسهولة أن الصوت قد يصل الى مسمع ابنه من خلال الباب المفتوح، فانضم إليها ووضع يده على كتف ابنه: «طلبت منك أن تبقى مع سولانج، يا حبيبي».

فقال الطفل ونظراته مسمرّة بشغف على وجه صديقته الجديدة: «دخلت لتجيب على مكالمة هاتفية. لقد ذهبت منذ وقت طويل، وهربت القطيطة، فجئت أبحث عنكما».

ـ قمت بالعمل الصواب. لم يكن ينبغي أن نتركك وحدك. لكننا أنهينا حديثنا الآن، فلماذا لا نلعب، أنا وأنت، لعبة أخرى معاً؟

فقال إيثان وهو يمسك بيد ابنه بحزم: «سبق وأوضحت أنه لن يبقى».

ـ وأنا أوضحت أنه غير مزعج.

وخطر له أنها هي نفسها المزعجة وأنه ينوي أن يضع حداً لذلك قبل أن تتسبب بإفساد ابنه بشكل لا يمكن إصلاحه. قال مرة أخرى بحدة أكثر: «كلا. سيأتي معي. لا يمكنك أن تقومي بعملك وأنت ترعينه».

فردّت بحدة: «أنا امرأة ويمكنني أن أقوم بمهام عدة في وقت واحد».

ـ وأنا أب ولا أحب أن أترك ابني وحده عند بركة السباحة خاصة مع امرأة لا تعرف مبادىء الإنقاذ من الغرق.

ـ آه، يا للسخافة!

ولوت ملامحها بشكل مضحك ودعكت أنفها في وجه أدريان الذي أغرق في الضحك: «الأب محق مرة أخرى، لكن لا بأس يا حلو، سيكون لدينا فرص أخرى كثيرة للعب».

هذا إن لم يكن لديه أي اعتراض، كما ستكتشف في أقرب وقت...

عبس وجّر إدريان إلى الخارج في الوقت الذي خرجت فيه سولانج من جناحها لتقول: «ثمة شخص ينتظرك في مكتبك، اسمه السنيور غونزاليس. أعتقد أن الأمر يتعلق بالبترول».

- لم أكن أتوقع قدومه قبل الغد. أظن أن علينا أن نذهب إلى بيتنا، يا صغيري.

وأشار إلى الطريق المؤدي إلى سفح التلة.

فقالت آن ماري: «نعم، إذهب. لاشيء يستوجب بقاءك هنا».

فردّ مصمماً على أن تكون له الكلمة الأخيرة: «ربما ليس في هذه اللحظة. لكنني سأعود. وعندئذ، سأضع بعض القواعد الأساسية لأننا بكل تأكيد بحاجة لأن نتفاهم على من هو صاحب الكلمة هنا».

- لم تترك لديّ أي شك من هذه الناحية.

- هذا ما أحب أن أعتقده، لكنني لا أراك من النوع الذي يعترف بالهزيمة بسهولة.

رفعت كتفها تهزّها بتمرد، فقال: «هذا يناسب كل واحد هنا، وعلى الأخص إبني. سنتوصل أنا وأنت إلى اتفاق مقبول من كلينا، وبهذا نتفادى أي صدام. فلن أعرّضه لمزيد من هذه الخلافات بيننا، لن أسمح لتنافرنا بأن يحوّل المناسبات المرحة قبل زواج أخي إلى معارك».

* * *

٤ ـ خسارة!

لم تره آن ماري مرة أخرى حتى المساء التالي حيث كان العشاء رسمياً يحضره أفراد الأسرة كلهم، بخلاف عشاء الليلة الماضية.

قالت لها سولانج وهما تتوجهان إلى «سانت غازبيو»: «تبدين جميلة. هذا الثوب من تصميمك؟».

- طبعاً. أنا أخيط أثوابي كلها.

- حسناً، عندما يراك إيثان الليلة، سيزول شكّه في موهبتك، إذ من المؤكد أنه سيعجب به.

قالت بحدة: «أنا لم ألبس هذا الثوب لأنال إعجابه».

لكن كلامها لم يكن صحيحاً. فقد تعمّدت أن تختار الشيفون البنفسجي من أجل فتحة العنق المثيرة، ولأنه يحوّل لون عينيها إلى قرمزي مدخّن فيما يظهر لون بشرتها عاجياً.

سأهزه هزاً!... كما أخذت تفكر متوعدة وهي تنظر إلى صورتها في المرآة فيما راحت ترفع شعرها، وتمسح جفنيها بظل خفيف بلون اللاقندر. قبل أن تنهي هذه السهرة، لن يبقى لدى أحد شك في من هو الأحسن ذوقاً!

لكن، حين تواجها أخيراً، خرست هي عن الكلام. فإذا بدا إيثان وسيماً وهو عارٍ إلى وسطه ذلك الصباح، فقد بدا رائعاً يخطف الأنفاس في قميصه الناصع البياض وسترته الرسمية البيضاء وربطة عنقه السوداء، لا سيّما وأنّ شفق الغروب حوّل لون بشرته إلى برونزي متوهج.

- يسرني قرارك بالحضور. اسمحي لي أن أقدم لك عمي لويس وزوجته جوزيفين دكلوس. هذه صديقة سولانج، الآنسة آن ماري باركلي.

قال لويس وهو يقبل يدها بكياسة: «تشرفنا يا آنسة. مرحباً بك في «بيللفلير».

فقالت زوجته بابتسامة باردة وهي تربت على كتفه: «هذا يكفي يالويس! أترك يد الآنسة باركلي قبل أن تبتلعها كلها، واسمح للآنسة أن تصبح من معارفي. تفضلي واجلسي معي تحت المظلة».

لابد أنّ إصدار الأوامر تحت غطاء الدعوة هو إحدى ميزات أسرة بومونت، كما رأت آن ماري وهي تقبل الدعوة. وباستثناء لون عينيها البني الداكن الذي يشبه لون عيني أدريان، كانت جوزيفين تشبه إيثان تماماً ما جعلها من آل بومونت ولادة ونشأة.

قالت لها بلهجة آمرة وهي تتفحصها بصراحة: «حدثيني عن نفسك، أنا لا أعرف عنك سوى أنك، وسولانج، صديقتان قديمتان. كيف حدث هذا فيما هي فرنسية وأنت كندية؟ هل عمل والداك في السلك الديبلوماسي؟».

- لا. توفي والداي في حادث تصادم بحري عندما كنت في الثامنة من عمري.

رقّت عينا جوزيفين قليلاً: «آسفة، إنها خسارة مؤسفة بالنسبة إلى طفلة. هل بقيت وحدك تماماً؟».

- ليس تماماً. كان لأمي شقيق فأصبح الوصي عليّ. لكنه كان أعزب وفي أوائل العشرينات من عمره ولم يكن لديه فكرة عن معاملة بنت صغيرة تبكي أمها وأباها كل ليلة. لهذا، أرسلني الى مدرسة داخلية حيث أجد أولاداً من سني على الأقل، وحيث تعرفت الى سولانج.

- وأصبحتما صديقتين لأنكما متشابهتان في أمور كثيرة. هذا لايعني أنها كانت يتيمة، طبعاً، لكنها أشبه باليتيمة حيث أنّ والديها نادراً ما كانا يهتمان بها.

- لم يهجراني تماماً، يا عمتي جوزفين.

وأضافت سولانج كعادتها في الدفاع عنهما مهما كان عدد المرات التي نسيا فيها عيد مولدها أو فشلا في أن يجتمعا بها: «كان عمل أبي في القنصلية يشغله جداً ويتطلب منه السفر بكثرة. السبب الوحيد الذي جعلني أمضي وقتاً طويلاً في المدرسة الداخلية هو أن أبي وأمي أرادا ان أزداد ثقافة».

فقالت جوزفين: «فسّري الأمر كما تشائين، لكن الحقيقة هي أنهما سلمّاك لمدرسة داخلية لتربيك فيما راحا يتنقلان في أوروبا. أخلاقك الحسنة هي وحدها التي تمنعك من الحديث بصراحة مثلي».

قالت آن ماري التي تعلم كم تتألم سولانج من انتقاد والديها بشكل قاس: «لقد اجتمعت بوالديّ سولانج في مناسبات عدة ووجدتهما دوماً محبين للغاية».

- أنا لم أقل إنهما كانا يتعمدان القسوة.

وألقت جوزفين على إيثان نظرة ذات معنى.

- فلنترك نشر غسيلنا القذر أمام الناس. إن رأي الآنسة باركلي بنا سيء من قبل.

أجابته آن ماري وهي تتناول من يد لويس دكلوس كأس عصير: «لا أدري لما تظن ذلك. إن أدريان طفل لطيف».

- لكنني لست كذلك.

ورغم أن إيثان قال ذلك ببشاشة وعدم اكتراث إلا أن ابتسامته حملت أكثر من مجرد ومضة من السخرية ما أحدث تغييراً في نفس آن ماري.

قالت تحاول أن تماثله في عدم اكترائه: «لا، بل أنت بغيض جداً».

عندئذ، انكمشت سولانج بشكل ملحوظ، فيما أطلقت جوزيفين ضحكة رنانة: «أظنك قابلت الآن نداً لك، يا إيثان. أما بالنسبة إليك يا طفلتي، فأعتقد أنني بدأت أحبك».

وربتت على ذراع آن ماري، فقال إيثان بجفاء: «لا بدّ أنك فهمت من هذا أن عمتي لا يعجبها الكثير من الناس. أتريدين مزيداً من العصير؟».

- لا تحاول أن تلهيها، فأنا لم أنته بعد من اختبارها وجمع المعلومات عنها.

وتفجر الفضول من العينين البنيتين ثم عادت جوزيفين تسأل آن ماري: «ماهو المهم في حياتك يا طفلتي، غير أنك صريحة بشكل منعش؟».

- قليل جداً، فعملي يشغلني دوماً عن ممارسة الهوايات.

- أنا لا أتحدث عما تفعلين! بل أريد أن أسمع عمّن... تكونين في داخلك، أفكارك وآرائك. وما تشعرين به، مثلاً، نحو زواج سولانج من رجل من آل بومونت؟

كان الظلام قد بدأ يحلّ، فيما أصبح لون البحر أشدّ زرقة وأشبه بلون الخوخ. لكن الشموع على المائدة ألقت ما يكفي من الضوء لترى آن ماري نظرات إيثان تتحول عن وجهها منزلقة حتى أخمص قدميها لتعود بعدئذ وتصعد إلى وجهها وكأنه يحاول أن يخترق عقلها ويتبين أشد أفكارها خصوصية. وجعلتها نظراته تتمنى لو لبست ثوباً أكثر احتشاماً.

رفع كأسه بتلك الرشاقة المتمهلة التي تتسم بها معظم حركاته، فبدت يده سمراء مقارنة ببياض كم قميصه. طرف جفناه ببطء فخفقت أهدابه على وجنتيه وقال باسماً: «كلنا بانتظار سماع جوابك يا آنسة. أتظنين أن سولانج لم تكن عاقلة حين ألقت نفسها في أسرة كأسرتنا؟».

فقالت بصراحة: «أرجو ألاّ تكون كذلك. أرجو أن يكون فيليب عند حسن ظنها».

- وهل لديك شكّ في ذلك؟

ترددت وقد كرهت طريقته في طرح الأسئلة مثيراً بذلك التحفّظات التي تخفيها عن سولانج. ففيليب الذي تتذكره كان ظريفاً وخدوماً، لكنه لا يملك ذرة من قوة أخيه. وسولانج ضعيفة وحساسة وتحتاج إلى رجل قوي بجانبها. فقالت بحذر: «أنا لم أرَ فيليب منذ ثماني سنوات تقريباً. وأتوقع أن يكون قد تغير، لهذا أفضل الامتناع عن التعليق حتى نتعارف من جديد».

لكن إيثان لم يشأ أن يدعها تفلت من الصنارة بسهولة، فقال: «ماذا تقصدين بكلمة تغيّر؟».

- تغيّر عما اعتاد أن يكونه... طبعاً... فتى بالكاد تجاوز سن المراهقة، أتوقع أن يكون قد نضج بشكل ما منذ ذلك الحين.

فتمتمت جوزيفين تخاطب زوجها: «لويس، ناولني دثاري ورافقني إلى البيت، فأنا جائعة».

وأثناء كلامها رن الهاتف بجانب إيثان، فحمله وسار إلى طرف الشرفة وهو يتحدث بصوت خافت قبل أن يستدير ليعلن قائلاً: «معذرة دقيقة في المواعيد يا عمتي. أما أنت ياسولانج، فسيسرك أن تعلمي أن فيليب وصل منذ نصف ساعة، وسيكون معنا على العشاء».

قفزت سولانج وقد أشرق وجهها فرحاً: «هل وصل فعلاً؟ ظننته سيأتي في وقت متأخر. هل تسمحون لي أن أذهب ركضاً؟».

فقال: «بكل تأكيد. اذهبي ورحبي بعودته».

ركضت بخفة الغزال، وبما أن جوزيفين ولويس عادا إلى البيت، فقد بقيت آن ماري من دون خيار آخر سوى السير مع إيثان.

أمسك بمرفقها بيد حازمة مادلّ على أنه لا يريدها أن تفلت من قبضته أو استلته: «والآن بعد أن أصبحنا وحيدين، أخيريني بالضبط ما رأيك في هذا الزواج بين صديقتك الحميمة وأخي غير الشقيق».

- مشاعري مشوّشة، يا إيثان. كان رأيي في فيليب أنه شاب ظريف ومؤنس للغاية لكنه مدلّل بعض الشيء. فاذا لم ينضج سأشعر بالقلق على هذا الزواج. من ناحية أخرى، لم أظن قط أن علاقته بسولانج ستدوم أكثر من صيف واحد، وهذه دلالة جيدة للغاية إذ دامت قرابة العشر سنوات.

- أنت تعلمين أنه عرف نساءً أخريات أثناء ذلك.

- وسولانج خرجت مع رجال آخرين. ومع ذلك، لم يستطع أحد أن يفرقهما في النهاية. كانا دوماً يعودان إلى بعضهما البعض.

- أتعرف سولانج شعورك... وأنك غير واثقة من صحة خيارها؟

www.liromancia.com

- لا. ثقة سولانج تهتز بسرعة وأنا لا يمكن أن أقول ما يزعزعها في هذه المرحلة. لو سألتني منذ ستة أشهر، لكنت أكثر صراحة.

- هذا ما أستغربه، ففي مثل صداقتكما الحميمة، كان من المفترض أن تكوني أول من يعلم بخطبتها.

- أنا الشخص الذي تلجأ إليه سولانج عندما تسوء الأمور، يا إيثان. عندما تسير الأمور معها على ما يرام، أبواها هما من يشاركانها سعادتها، لأنها تعلم أنّ لا وقت لديهما ولا ميل للتورط في متاعبها. الأخبار الوحيدة التي تهمهما هي أخبارها الجيدة.

- ملاحظات عمتي لم تكن إذن في غير محلها؟

- نعم، مع الأسف.

قال بعنف وقبضته تشتد على مرفقها: «هذا يجعلني أتساءل لما يزعج البعض أنفسهم في إنجاب الأطفال منذ البداية».

- هل أنت نادم على إنجاب أدريان؟

- يا إلهي، كلا! ما هذا السؤال؟

- لأنني أراك تطحن عظامي. إنجاب طفل، بالنسبة إلى بعض الرجال، دليل رجولة.

- وبالنسبة إلى بعض النساء، الطفل هو شيء يلقين به جانباً عندما يتعبن من تمثيل دور الأم.

- هل تتحدث الآن عن زوجتك السابقة؟

- نعم، رغم أنني لا أرى كيف استحقت أن نتحدث عنها. كانت، إذا سمحت لي أن أتحدث بصراحة، مومساً ولا تستحق أبناً كأدريان.

- هجر الطفل مناقض تماماً لغرائز المرأة، وأظنها كانت تعيسة للغاية لتلجأ إلى عمل كهذا.

- أتعنين أنني سبب هربها؟

- أنا لا أعني شيئاً وإنما أعبرّ فقط عما أعتقده. فهجر الأم لطفلها عادة تصرف ضد الطبيعة.

- ليس ثمة ما هو طبيعي بالنسبة إلى ليزا. المؤسف في الأمر هو أنني لم أدرك ذلك في حينه، وإلا لوفرت على كل شخص، وعلى ابني بالذات، الكثير من ألم القلب.

وماذا عن ألم قلبك أنت؟ أخذت تتساءل في نفسها وهي تلحظ اهتزاز صوته. هل ما زال الألم يتملكك كلما استيقظت وحدك في الليل؟ هل أدريان هو الوحيد الذي افتقدها؟ وسألته: «لو طلبت أن تعود فهل تعيدها؟».

كانا قد وصلا إلى فسحة تسبح في ضوء القمر. وكان شذا الأزهار يملأ الجوّ الساكن، الذي لا يعكرّه أيّ صوت... ما عدا أنفاسه غير المنتظمة.

ردّ من بين أسنانه المطبقة: «نعم».

بدا جوابه وكأنه سلخ من قلبه وتركه جريحاً ينزف حتى الموت: «نعم، أعيدها. ماذا يمكنني أن أفعل خلاف ذلك؟».

ما كان عليها أن تهتم. لكن عذابه تدفق خارجاً وأوقعها في شراكه، فملأها بشعور غير منطقي يتعذر تفسيره، شعور بأنها سُلبت. لكن، كيف يمكن ذلك وهي التي لا تملك شيئاً يُسلب؟

* * *

عندما وصلا إلى البيت وجدا جوزيفين وزوجها ينظران بإعجاب إلى إناء مليء بأزهار الغاردينيا في أحد جوانب شرفة غرفة الطعام، وفيليب وسولانج في الجانب الآخر على سجيتهما في عناق حميم. وسواء أكان مابدا على وجهها انزعاج أم شعور آخر فقد صدر عنه صوت يعبر عن عدم الرضا فرمقته آن ماري بنظرة هازئة وقالت بهدوء: «ماذا جرى يا إيثان؟ هل تشعر بالغيرة؟».

فتمتم: «لا، أبداً. لكن ثمة وقت ومكان لكل شيء».

- ليس في حالتهما. وقد حرصت أنت على ذلك بإبعادهما عن بعضهما البعض قدر الإمكان، ولهذا من يلومهما إذا ما استغلاّ أي فرصة تسنح لهما؟

فقال بعناد: «هل أفهم من هذا أنك غير متحفظة في... علاقاتك الخاصة؟».

ـ أنت تجعل كلمة(علاقات) تبدو وكأنها قذرة، ياإيثان. وكأنك تظن أنّ الرجال يصطفون متلهفين أمام بيتي.

تباطأت نظراته، وكأنما رغماً عنه، على قماش ثوبها الذي ينحدر من كتفها إلى صدرها النحيف: «لا ألومهم إذا ما فعلوا».

احمر وجهها: «لا أدري ما إذا ينبغي أن يشعرني قولك هذا بالغرور أم بالإهانة؟».

وفرّ عليه الجواب فيليب الذي ما إن رآهما حتى تقدم إليهما وأخذ آن ماري في عناق وجده إيثان حماسياً أكثر مما يقتضي الموقف.

ـ لو أنني لست ناوياً على الزواج من سولانج لعرضت عليك الزواج، ياآن ماري. أما من رجل آخر عقله كبير كعقلي؟

سمعت جوزيفين كلامه فقالت بجفاء: «لعلّ آن ماري هي العاقلة. دعها، أيها الأحمق، ودع أخاك يقودها إلى العشاء قبل أن يغمى عليّ من الجوع! لماذا تأخرت في الوصول ياإيثان؟».

ـ كنا نتحدث فمرّ الوقت من دون أن نشعر.

فنظرت إليه جوزيفين بحدة: «عما تتحدثان؟».

ـ عن الأطفال وكيفية معاملتهم.

أجابها وهو يحاول أن يتجاهل القلق الذي شعر به حين رأى التعبير البادي على وجه سولانج وهي تراقب أخاه. هل لدى فيليب أي فكرة عن عمق حبها له؟

انتقلوا جميعاً إلى غرفة الطعام، فدعيت آن ماري للجلوس إلى يمين إيثان على رأس المائدة. جلست على كرسيها برشاقة فيما راح ثوبها يتموّج حول كاحليها، ما جذب انتباهه رغماً عنه إلى جسد المرأة التي ترتديه. كانت الثريا المتدلية من السقف تلقي ظلالاً على وجهها. وكانت الشمس قد صبغت بشرتها الحنطية بعض الشيء فأصبحت بلون العسل.

وتملكه الاشمئزاز حين وجد نفسه ولأول مرة، مسروراً جداً بفضول عمته واهتمامها البالغ بتفاصيل بحياة الآخرين، فقد أعفاه هذا من إجراء حديث مؤدب مع امرأة يجدها بالغة الجاذبية.

سألتها جوزيفين وهي تتناول حساء البرتقال والسابا: «كم عمرك، ياطفلتي؟»

ـ ثمانية وعشرون.

ـ ولم تتزوجي قط؟

ـ لا.

وابتسمت من دون أن يبدو عليها الانزعاج من هذه الأسئلة الخاصة: «لم يكن لدي الوقت. أو لعلي لم أقابل الشخص المناسب».

ـ لكن ليس لديك أيّ اعتراض على الزواج؟

أمالت عنقها وأسبلت أهدابها ثم فكرت لحظة قبل أن تقول: «لا، فأنا أريد زوجاً وأولاداً وكل الأشياء الجميلة التي تترافق مع ذلك».

ـ أتعنين بالأشياء الجميلة المال؟

ـ كلا! لديّ الكثير من المال.

ـ إذن المركز الاجتماعي؟

ـ أعتبر أنّ لديّ هذا أيضاً.

وألقت نظرة تسلية على إيثان: «رغم أن بعض من يجلس إلى هذه المائدة قد لا يوافقني الرأي».

فقالت جوزيفين: «آه، دعك من إيثان! إنه من الرجال الذي إذا ما صمموا على أمر لا يتراجعون عنه. ولكن هذا لا يعني أنه دوماً على حق».

ـ إذا سمحتما لي بأن أقول شيئاً دفاعاً عن نفسي، فأنا لم أصل إلى أي استنتاج قاسٍ وسريع بشأنك، يا آنسة.

فردت بحدة: «بل وصلت بكل تأكيد. فقد وصفتني بالمتهورة، المهرجة، الفظة فيما ذنبي الوحيد في الواقع، هو أني متهورة».

ـ لا تتهميني بكلمات لم أنفوه بها ولا تفترضي أنك استطعت قراءة ما في

www.liromancia.com

ذهني.

رفعت جوزيفين يدها آمرة: «تجاهليه، يا آن ماري، وأخبريني عن تلك الأشياء التي تتلهفين للوصول عليها».

ـ إنها ليست مادية، إذا كان هذا ما تتساءلين عنه. أريد أشياء لا يشتريها المال... يمكنك أن تسميها تقاليد، كاصطحاب ابني ليختار شجرة الميلاد أو ليساعدني في تزيينها ثم يشرب كاكاو ساخناً. وإذا رُزقت بابنة فسأخيط لها ثوباً جميلاً للحفلات، وأخبز قالب حلوى لعيد ميلادها.

أومأت جوزيفين برأسها بعطف: «هذه هي الأمور التي حرمت منها في طفولتك. نعم، أفهم لما هي هامة بالنسبة إليك الآن. أترغبين في أن يكون لك اكثر من ولد واحد؟».

ـ بكل تأكيد. أرجو ألاّ يتألم أولادي من اليتم كما تألمت أنا، لكن على الأقل إذا حدث هذا، فسيكونون معاً فلايشعرون بالوحدة. الولد الوحيد بحسب خبرتي غالباً ما يعيش وحيداً مستوحشاً.

فقال إيثان معترضاً: «ليس من الضروري أن يعيش كذلك».

فهزت كتفيها: «كلا، طبعاً. كل شيء يعتمد على الظروف».

ـ وظروفك كانت مأساوية بشكل خاص.

قالت عمته ذلك قبل أن تتذوق حساءها ثم تبدأ وابلاً آخر من الأسئلة: «لقد تعبت كثيراً لكي تصنعي لنفسك اسماً في عالم الأزياء، يا عزيزتي. هل تظنين أنك قادرة على التخلي عن مهنتك لكي تنشئي أسرة؟».

ـ ربما ليس بشكل دائم، ولكن حتماً ليس لمدة قصيرة. فأنا أعتبر الأمومة مهنة ذات أهمية بالغة.

ـ هذا حسن. من حسن الحظ أنك ستمكثين معنا أسابيع عدة!

ونظرت جوزيفين نظرة ذات معنى إلى إيثان وهي تقول ذلك ثم أردفت: «ومن المؤسف أننا لم نعرفك منذ سبع سنوات».

قال وقد أدرك المنحى الذي يتخذه كلام عمته: «أنت التي كنت تدعين أنك تكادين تموتين جوعاً، أراك تتحدثين أكثر مما تأكلين».

عمته لم تحب ليزا قط، وقد جعلت هدفها في الحياة أن تدبّر له زوجة أخرى تناسبه أكثر.

لكنها ردّت عليه الآن: «أحاول فقط أن اكون اجتماعية. أخبريني يا آن ماري، هل أعجبتك هذه الغرفة؟».

ـ كثيراً جداً فالأزهار المرسومة على الجدران بالغة الدقة. إنه خداع النظر، أليس كذلك؟.

ـ تماماً، يا طفلتي. وما أجمل أن تكوني من الثقافة بحيث تميزين ذلك!

أجابت جوزيفين بذلك وقد بدا سرورها واضحاً لاكتشافها براعة ضيفتها.

تابعت آن ماري كلامها مازاد من قيمتها في عيني عمته: «لقد رأيت الكثير من هذه الأمثلة الرائعة في القصور التي زرتها في فرنسا. في الواقع، اتبعت الأسلوب والبراعة الفنية نفسيهما في بعض تصاميم النسيج أثناء دراستي».

فقالت سولانج، محاولة أن تسلخ اهتمامها عن فيليب بما يكفي لتساهم في الحديث: «وقد ربحت آن ماري ميدالية ذهبية لذلك».

ـ أحقاً؟

ابتسمت جوزيفين بانشراح كهرة أكلت لتوها صحفة من القشدة، كما اعترف إيثان في سرّه بأنه معجب حقاً بذلك. لعل آن ماري باركلي أعمق مما ظنه في البداية.

ومع ذلك، تملكه الارتياح عندما جاء رئيس الخدم لكي يشرف على تقديم الطبق الثاني.

مال إيثان نحو آن ماري وسألها بصوت خافت: «أرجو ألاّ تكون تعليقات عمتي قد أزعجتك. إن نيتها طيبة، لكن اهتمامها يتخذ أحياناً شكل الاستنطاق. وأنا أعتذر إذا ما جعلك ذلك غير مرتاحة».

فأجابت: «لا. صراحتها ترضيني وأنا أحسدك على إخلاصها لك».

ـ إذا كنت معجبة حقاً بديكور هذه القاعة فسيسرّني جداً أن أجول بك في أنحاء المنزل حين يكون لديك وقت فراغ.

ـ سيسرّني ذلك.

هل هذا صحيح، أم أنه مجرد تهذيب منها؟ وهل هي حقاً بهذا الهدوء والصفاء البادين عليها؟ أم أنها تلعب دوراً اجتماعياً يقتضي الظهور بهذا الشكل؟

وجد نفسه أثناء العشاء يراقبها، باحثاً عن إشارة إلى ما يكمن حقاً خلف ابتسامتها الجميلة، مصغياً إلى ضحكتها الموسيقية، وصوتها الأبح قليلاً. وعندما اعتذر الآخرون وخرجوا وتركوهما وحيدين، وجد نفسه يعرض عليها أن يوصلها إلى الفيلا التي تقيم فيها بلهفة جعلته يتساءل عما إذا كانت سحرته بشكل ما.

ربما سيندم لاحقاً على ذلك. لكن فرصة التنقيب خلف الظاهر واكتشاف شخصيتها الحقيقية جعلته يشعر فجأة أنها من الأهمية بحيث لا يمكن تجاهلها.

***

٥ ـ عابرة سبيل

ـ هذا ليس ضرورياً.

قالت له آن ماري هذا حين أشار إليها بالخروج إلى الشرفة، بعد أن خرج الأربعة الآخرون. بقيا وحدهما يتمهلان في شرب القهوة، لكنها كانت تعلم ما قد يحصل أثناء وجودهما وحدهما في الحدائق المنعزلة ما ملأها بقلق غريب.

ـ أؤكد لك أن بإمكاني العودة وحدي.

ملأتها ضحكته بالنشوة في هذه الليلة الدافئة.

ـ أشك في ذلك ما دمت لم تعرفي الطريق في وضح النهار. كما أن الطريق منحدر في بعض الأماكن، ومن غير المعقول أن أعرضك لخطر السقوط والتسبّب بأذية نفسك. عندئذ لن تسامحني سولانج أبداً. على أيّ حال أنا بحاجة إلى بعض الهواء النقي، كما سيمنحنا هذا فرصة لنتعرف إلى بعضنا البعض بشكل أفضل.

ـ أفضل؟ ولما ليس (بشكل مختلف)؟

ـ لا أدري ماذا تعنين؟

ـ دعني إذن أتكلم بصراحة! رأيك فيّ مرّ باختبار دقيق وغامض أثناء العشاء والفضول يملأني لمعرفة السبب: هل هو التعبير عن إعجابي بديكور غرفة الطعام، أم واقع أنني لم أسرق فضيات الأسرة؟ هل هذا كله أقنعك بأن تخفف من عدائيتك نحوي، أم أن رضا عمتك عني هو الذي خفف حدّة

www.elromancia.com

موقفك ذاك؟

ـ هل كنت غولاً بهذا الشكل؟ أعتذر إذن.

ـ هذا ليس جواباً عن سؤالي.

ـ إذن، ربما سيكون هذا هو الجواب. لم يخطر لي لحظة أنك قد تسرقين فضيات الأسرة، كما لم أشكك بذكائك، يا آن ماري. أما بالنسبة إلى عمتي...

ومرة أخرى، بعثت ضحكته شعوراً من البهجة يتعذر تفسيره في كيانها: «أنا معتاد على تدخل جوزيفين في الحديث بكلمات تافهة وذلك ما بين الحين والآخر إلى حد أني لم أعد ألاحظ ذلك».

وأمسك بيدها ثم قادها في ممر مرصوف يؤدي إلى بركة السباحة، غير الممر الذي أحضرها منه إلى المنزل: «المكان هنا ساحرّ، ألا تظنين ذلك؟».

ـ ساحرّ فعلاً.

لم تستطع متابعة الوصف. الزنابق المستوردة والأزهار الأخرى التي لم تعرف أنواعها بدت شاحبة تحت ضوء القمر وكأنها ليست حقيقية تقريباً.

كان مشهداً فاتناً وسحرياً إلى حد خيّل إليها معه أنها تسمع أنغاماً موسيقية تتعالى في الجوّ الساكن، فوقفت تستمع. نعم، كان هناك شيء بدائي وشجيّ...

قال إيثان وقد وقف هو أيضاً: «في أعماق قلبي».

فرجعت إلى الخلف، وأجفلت لحظة ظناً منها أنه يخاطبها. لكنه عاد يتابع: «إنها اللازمة من أوبريت «الأمير التلميذ» المفضلة لدى عمتي. فهي وعمي يرقصان على أنغامها كل ليلة تقريباً. إنها ذات قيمة عاطفية كبيرة بالنسبة لهما، فقد عرض عليها الزواج ليلة أخذها لحضور تلك الأوبريت منذ خمسين عاماً».

ـ وما زالا يلتزمان بهذا التقليد حتى الآن؟

يا لها من قصة مؤثرة وغير متوقعة ذكّرتها بتصرفات والديها! ما جعلها تشيح بوجهها محرجة بعد أن اغرورقت عيناها بالدموع: «هكذا يجب أن

يكون الزواج».

دسّ منديله في يدها وهو يقول: «لكنه نادراً ما يكون كذلك. خذي هذا المنديل، أظنك بحاجة إليه».

فقالت شاعرة بحماقتها: «لا أدري لما أحتاجه».

ـ لقد فوجئت. ظننت أنّ ما من مكان للعواطف أو الحنان في علاقة تبدو فيها الزوجة هي المسيطرة.

قالت باسمة للخليط الغريب من العامية والفصحى في كلامه: «حسناً يبدو وكأنها تسيطر على عمك نوعاً ما».

أمسك بيدها مرة أخرى ولم يتركها: «ربما ظاهرياً، لكنه العمود الفقري في حياتهما الزوجية. وهذا يظهر أن الانطباع الأول يمكن أن يكون خاطئاً، يا آن ماري. وهو درس لنا نحن الإثنين يعلمنا ألاّ نصل إلى استنتاجات متسرّعة. لويس هو ضوء حياة عمتي وهي كذلك بالنسبة إليه».

(آن ماري)... لقد خاطبها باسمها، والطريقة التي نطقه بها بدت وديّة حميمة بشكل احمرّ له وجهها. فقالت متظاهرة بهدوء هو بعيد عنها: «كان والداي كذلك كما أتذكر. غالباً ما يخطر لي أنّ من الأفضل أنهما ماتا معاً، وإلا لما استطاع أحدهما العيش من دون الآخر. كان الواحد منهما بحاجة إلى الآخر بقدر ما يحتاج الإنسان إلى الأوكسيجين».

وفي تلك اللحظة أدى بهما الطريق إلى فسحة يتوسّطها حوض من الزنابق يعلوه جسر حجري صغير. قال وهو يقودها نحوه: «لكن كان لديك احتياجاتك أنت أيضاً، وأظن أنها بقيت مهملة مدة أطول مما يجب».

كان القمر بدراً، يغمر الأشجار والنباتات المحيطة بهما بأشعته الفضية ويلقي الظلال العميقة الطويلة على وجه الماء. وأطلق طائر ليلي زعقة حادة أقلقت السكون.

ـ احتياجاتي؟

ـ نعم.

وكان سؤالها بسيطاً في الظاهر على الأقل، لكن ليس من دون تأثر.

فالشعور بالانتماء، بالارتباط بشخص آخر، شعور مفقود في حياتها منذ اليوم الذي علمت فيه بوفاة والديها.

بحثت عن هذا الانتماء في كل علاقة عاشتها، لكن من دون نجاح، وما ظنت يوماً، حتى في أكثر تصوراتها غرابة، أنها ستجده لدى رجل لم تعرفه سوى منذ أربع عشرين ساعة أو أكثر بقليل.

ومع ذلك، وجدته فجأة واقعياً محسوساً للغاية حتى لتكاد تلمسه.

قال: «لماذا لم تخبريني بالسبب الذي يجعلك تخافين الماء؟ لو علمت أنّ والديك غرقا عندما كنت طفلة، لأظهرت تفهماً أكثر».

فقالت متلعثمة: «أحقاً؟».

قال مرة أخرى وهو يقف قريباً منها: «نعم».

كيف حدث هذا؟ وتساءلت ذاهلة، كيف أصبحت صلتها بإيثان بومونت وفي ثانية واحدة مختلفة تماماً؟ في أي لحظة بالضبط لم يعودا فجأة المضيف الحذر والمتيقظ والضيف المندفع المتهور، ليصبحا رجلاً وامرأة تجذبهما إلى بعضهما البعض قوة خارجة عن إرادتهما.

لم يكن لديها جواب. كل ما تعرفه هو أنّ هذا حدث، وأنّ شعوراً متهوراً يحبس الأنفاس تملكها. ومن دون تفكير في النتائج، رفعت وجهها وأخذت تعبّ من شذا أزهار الليل ومنه ومن الرجولة التي تندفق منه. أغمضت عينيها وانتظرت... انتظرت...

مرت الثواني مدفوعة بخفقات قلبها المتسارعة. وعندما ظنت أنها مخطئة وأن ما من شيء تغيّر بينهما، قال بصوت ممزق: «هل من المفترض أن أعانقك الآن، يا آن ماري؟».

كانت المعركة التي يخوضها... ويخسرها، تكاد تعكس غليان مشاعرها التي جعلتها تجد الشجاعة لتهمس: «ما رأيك في شيء من الحقيقة، من باب التغيير، يا إيثان؟ ما رأيك في أن تقول: أريد أن أعانقك، يا آن ماري؟»

فتمتم يقول: «لا».

لكن يديه خانتاه وتسللتا إلى شعرها تزيلان الدبابيس التي ترفعه إلى أعلى حتى انسدل على كتفيها، ثم قال مرة أخرى بعنف تقريباً: «لا، لن يحدث هذا أبداً».

ـ لما لا؟

ـ لأنه سيكون غلطة.

لكن، إما لم يكن يؤمن حقاً بما يقول، وإما وجد نفسه تحت رحمة مشاعر عجز عن السيطرة عليها. فقد أحنى رأسه حتى أخفى القمر الذي كان يطل من فوق كتفه، ودغدغت أنفاسه حواسها.

وأخيراً، وعندما أخذت ترتجف توقعاً شعرت بذراعيه حولها، فضاع رشدها.

أيقظ قربه منها كل غريزة أنثوية فيها وأطلقها من عقالها. أحال كل شعور آخر اختبرته إلى رماد وكل رجل آخر إلى ظل.

وبعد لحظات، تركها وتراجع خطوة ليتفحصها بعينين ضيقتين غامضتين ثم قال بصوت أبح: «كنت على صواب، فهذه غلطة كبرى».

فقالت محاولة أن تخفي خيبة أملها: «لكنها ليست مميتة بكل تأكيد. يمكن للناس أحياناً أن يتعلموا الكثير من أخطائهم».

ـ نعم، لكن هذا درس كنت في غنى عنه فهو لم يعلمني شيئاً أردت أن أعرفه.

ودّت أن تقول له إنّ عناقهما علّمها أموراً لا تريد أن تنساها أبداً، لكنه لم يكن في مزاج يجعله يرغب في الإصغاء. أما النار التي أشعلها فيها، فانطفأت وعاد هو مرة أخرى ذلك المضيف البارد الملتزم بواجباته رغماً عنه وليس بإرادته.

أشار إليها أن تتقدمه على الجسر: «تعالي، مسكنك هناك على بعد باردات قليلة».

وبعد لحظة، بدا المصباح الذي يضيء شرفة ڤيلا الضيوف. وكانت الخادمة قد تركت مصباحاً صغيراً في جناح آن ماري. لكن الڤيلا الملاصقة

كانت غارقة في ظلام دامس، وهذا سرّها إذ لم تكن مستعدة لمواجهة سولانج.

سألها: «هل ستكونين على ما يرام الآن؟»

ـ تماماً. شكراً.

ـ إذن، سأقول لك وداعاً. تصبحين على خير.

ـ أنا واثقة من أنني سأنام كالأطفال.

قالت هذا وهي ترتجف. ثم دخلت إلى غرفتها حيث استندت إلى النافذة وراحت تصغي.

فضلاً عن خفقات قلبها التي ما زالت تتعالى، سمعت وقع خطواته على الأرض المرصوفة بالحصى وهو يبتعد. وتساءلت كيف تستطيع مواجهته مرة أخرى من دون أن يحمرّ وجهها. كانت تعلم أنه لو لم يبتعد لما اتخذت هي هذه الخطوة. لكن الأسوأ هو أنه كان يعلم ذلك أيضاً.

* * *

في الأيام القليلة التالية، تجنّبته كلياً فركّزت على إنهاء ثوب الزفاف واستخدمته عذراً لتبتعد عن البيت الرئيسي. وضعت نظاماً لنفسها، فكانت تعمل في الصباح وفي الأمسيات الباردة، وتمضي ساعات النهار الحارة إما بجانب بركة السباحة وإما فيها.

وجدت أنه مع التدريب اليومي، كانت ثقتها بنفسها تزداد في الماء. وسرها أن تتمكّن أخيراً من أن تقطع من دون فزع مسافة الأربعين قدماً، وهو طول البركة.

طلبت إرسال الطعام لها من البيت الرئيسي، فكان الخادم يأتي ثلاث مرات في اليوم جاراً عربة تعلوها صينية. وكانت الصينية تحتوي على فاكهة وخبز ساخن وقهوة للفطور، وحساء ومزيد من الفاكهة للغداء. أما على العشاء فكانت تأكل من الطعام الذي يعدّ للأسرة، وهو دوماً لذيذ وشهيّ.

واعتاد أدريان أن يزورها عند العصر، فتحضره مربيته حوالى الثانية

والنصف لتعود وتأخذه قرابة الرابعة.

ذات مرة، وفيما كانت تجفف شعرها بعد السباحة، استند إليها وقال بحزن: «كان شعر أمي ذهبياً كشعرك، لكنها رحلت. يقول بابا إنك سترحلين أيضاً، لكنني أتمنى ألاّ ترحلي. فسأفتقدك».

فقالت عالمة أنّ كلامها مجرد مواساة ضعيفة: «أنا لن أرحل الآن. ما زال لدينا الكثير من الوقت نمضيه معاً. وعندما أرحل إلى بيتي، سأرسل لك صوراً لبيتي وحديقتي، وكهذا تعرف أين أعيش».

نظر إليها طويلاً وعيناه السوداوان واسعتان رزينتان، ثم دفن وجهه في كتفها وقال بصوت مرتجف ضعيف: «لن يكون الأمر مماثلاً».

لكنه لم يذرف دمعة واحدة لأنه يعلم مسبقاً أن البكاء لا يجعل الشخص يبقى. وفطر قلبها أنه تعلم مثل هذا الدرس من الحياة في هذه السن المبكرة.

بعدئذ، وحين ظنت أنه نسي حديثهما ذاك، سألها: «يمكنني أن أقرأ قليلاً. هل لك أن تكتبي لي رسائل أيضاً؟ أنا أفرح حين تأتيني رسائل. ساعي البريد يحضر إليّ الكثير من البطاقات في عيد ميلادي».

ـ سأرسل لك رسائل كثيرة. ولكي تصلك بسرعة، سأرسلها عبر الإنترنت إلى مكتب أبيك.

ـ لا، قد يغضب أبي. فهو يقول إن عليّ ألاّ أستمر في إزعاجك.

ـ إذن، سأرسلها لسولانج. وسيكون هذا سراً بيننا.

لم يكن هذا هو السر الوحيد الذي أخفته عن إيثان. ففي الليلة الأولى من النظام الجديد الذي فرضته على نفسها، وبعد أن أنهت عملها، أرادت أن تحرك عضلاتها المتشنجة فقررت أن تكتشف الحدائق. وهكذا اكتشفت الدرجات التي تؤدي إلى المنحدر.

عند أسفل الدرجات، وجدت خليجاً صغيراً هادئاً. شاطىء هلالي رائع من الرمال البيضاء، تتوسطه صخرة كبيرة مسطحة جلست عليها مدة طويلة تنظر إلى القمر الذي أخذ يرتفع من وراء البحر. وفي طريق العودة، كادت تصطدم بفيليب الذي ظهر أمامها فجأة من بين الظلال، ثم دخل إلى

قبلا سولانج.

بعدئذ وكل ليلة، كانت آن ماري تنزل إلى الشاطىء، وهي تعي أنّ فيليب يتسلل تحت جنح الظلام، ليقابل خطيبته.

لم تكن سولانج تحافظ على التقاليد رغم محاولات إيثان، الذي لو علم لثار غضباً.

وفي الليلة الخامسة، وبعد العاشرة بالضبط وفيما كان مسكن سولانج غارقاً في الظلام، ظهر إيثان على باب آن ماري.

- رأيت النور مضاءً ففكرت في المرور عليك. هل ما زلت تعملين إلى هذا الوقت؟

كان يرتدي قميصاً من قماش أصفر رقيق، مماثلاً للبنطلون وحذاءً خفيفاً بينما كانت هي قد أنهت لتوّها حمامها. كانت حافية القدمين ترتدي ثوباً قطنياً خفيفاً يكاد لا يغطي ركبتيها، وتلف شعرها بمنشفة.

فكرت في أن تجيبه: طبعاً! فهذه دوماً ملابسي أثناء العمل! لكنها رأت أن وضعها لا يتناسب مع هذه الوقاحة. لعل ملابسه بسيطة إلا أنها محتشمة على الأقل، على عكسها هي. فقالت بلطف: «لا، لقد أنهيت العمل لليوم».

- هل يمكنني الدخول إذن؟ أريد أن أتحدث إليك.

أصبحت قدمه في الداخل من دون أن يبدو عليه أنه سيرضى بالرفض، فتنحّت جانباً لتدعه يدخل: «تتحدث عن ماذا؟».

- الموضوع الأول هو ابني.

كانت الردهة واسعة بشكل يسمح لشخصين بالرقص، لكن طوله البالغ ستة أقدام وحجمه جعلاها تتقلص: «إنه يمضي الكثير من الوقت معك».

- صحبته تسعدني.

- إذا كنت تتطلعين إلى الصحبة، فيمكنك أن تحصلي على صحبة الكثيرين في المنزل الكبير.

- دعني أوضح كلامي. أنا أفضل صحبته بالذات.

- على صحبة عمتي وزوجها؟

- لا، بل على صحبتك أنت.

التوى فمه بتسلية: «جوابك سحقني سحقاً، يا عزيزتي، لكنني لن أموت... وكذلك أنت. أما وضع أدريان فمختلف. إنه أضعف بكثير من أن يُترك تحت رحمتك».

فهتفت غير مصدّقة: «ما الذي تخافه؟ لا أظنك تعتقد أنني قد أفعل ما يؤذيه؟»

- ربما ليس عمداً. لكن مهما كانت دوافعك حسنة، فسينتهي بك الأمر إلى أن تسببي له الضرر على المدى الطويل.

- بحق الله يا إيثان، فأنا لا أطعم الصبي سكراً يتلف أسنانه ولا أعلّمه الشتائم، كما لا أدعه يتسكّع في الأدغال وحده! وهو لا يسبح في البركة أبداً إلاّ إذا كانت سولانج معه لأنني أعرف أني عديمة الفائدة إذا ما تعرّض لأيّ مشكلة في الماء. كل ما أفعله هو أني ألعب معه.

فقال وهو يتجه إلى الصالون: «أعرف هذا».

وتوقّف مبدياً إعجابه بقماش فيروزي لامع على منضدة العمل ثم أضاف: «لكنه ليس لعبة، يا آن ماري، وهو لا يفهم الاعيب امرأة مثلك».

لم يحدث أن استطاع رجل في العالم أن يغضبها بهذا الشكل: «ما معنى قولك... (امرأة مثلي)؟»

توقّف أمام ثوب زفاف سولانج يتأمل تطريزه: «امرأة تهرب في الليالي، وتنتقل بسرعة ومن دون إنذار، من أمر يشغلها إلى آخر. أنت حالياً تستمتعين بتملّق صبي صغير، لكن حين يصبح الجديد قديماً وغير مثير وتتحول الحاجة إليه إلى عبء وحمل ثقيل، عندئذ ستنبذينه وتنتقلين إلى الأمر التالي حيث تصطادين من يعجبك غيره من دون أن تفكّري في الضرر الذي ألحقته به».

فقالت بلهجة لاذعة: «لا بد أنك تخلط بيني وبين زوجتك السابقة، إذ

لا يمكن أن أعامل طفلاً أو أي مخلوق آخر، مهما كان السبب، بمثل تلك الدناءة التي تفكر فيها».

ـ دعي زوجتي السابقة وشأنها.

ردّت عليه بحدة: «لما أتركها فيما نحن الاثنين نعلم أنها جوهر الموضوع؟ فأنت تحمّلني عيوبها وتحاسبني على تلك العيوب».

كانت غير مستعدة لأن تتنازل أو تتراجع أمام هجومه الشرس.

ـ أيمكنك أن تلوميني؟ فأنت جزء من ذلك العالم المزيّف الذي أغراها بالهرب من هنا.

ـ أليس افتراضك أني، أنا أيضاً، براقة ومزيفة استنتاجاً متسرعاً وغير مبرر؟

قال وهو يتقدم نحوها: «نحن انعكاس لأذواقنا وميولنا، يا آنسة».

ـ آه، رباه... أترانا عدنا إلى سخافة المخاطبة بلقب آنسة مرة أخرى؟

وضربته بظرف على كتفه رغم أن هذا التصرف لم يكن حكيماً منها، إلا أنها أرادت أن توبخه: «حسناً، استمع إليّ يا سيد! صدّق أو لا تصدّق، لكنني لم أتعود معاملة الناس وكأنهم سلع أستعملها مرة ثم ألقيها في القمامة. فأنا أعرف تمام المعرفة وعن خبرة ما معنى أن يُترك الإنسان وحيداً في هذه الحياة. لذا، تراني أعتز بالصداقة أكثر من أي شيء آخر، وأنا مولعة بأدريان ولا أدري لما لا يحبّه أي شخص آخر مثلي. إنه فاتن».

ـ وهو مولع بك أيضاً، وهذا هو مقصدي. إنه يفتقد أمه ولا ينفك يبحث عن امرأة تحلّ مكانها. لكنك مجرد عابرة سبيل في حياته، ولن يكون عليك أن تواجهي تأثير رحيلك عليه. أنا الوحيد المسؤول عن سعادته وخيره ولهذا السبب أتخذ الآن خطوات لأحميه منك.

فسألته بحرارة: «هل ستمنعني من رؤيته؟ إذا كان الأمر كذلك فأريد منك وعد شرف بأنك ستشرح له الوضع من دون أن أظهر وكأنني الشخص الشرير في الحكاية. لا أريده أن يظن أنني تركته بإرادتي».

ـ لا حاجة لهذه الخطوة المتطرّفة بالضبط. إنه يعرف أنك تعملين وأنه لا

يستطيع أن يزعجك كلما خطر في باله ذلك. لذا، وبدلاً من تعزيز هذه العلاقة التي لا بد أن تنتهي يوماً ما، أطلب منك أن تمضي الوقت معه في البيت الرئيسي فتصبحان بذلك جزءاً من الأسرة كلها، ما يصل بي إلى المسألة الثانية التي جئت من أجلها. أنت تذكرين أني أردت مناقشة مسألتين معك.

ـ رباه، وكيف يمكن أن أنسى؟ إنني أنتظر بلهفة أن تنطق بالجوهرة الأخرى.

وأسبلت أهدابها وتنهدت بشكل مسرحي مبالغ فيه مضيفة: «حسناً، أنا أشجّع نفسي لمواجهة الأسوأ. تكلم ولا ترحم مشاعري».

ـ كنت تتجنبينني.

ـ وهل هذا مستغرب؟

اقترب منها عمداً فجعلها التعبير الذي ارتسم في عينيه ترتعش من داخلها.

ـ أتظنين أن تجنّبك لي سيغيّر ما حدث بيننا تلك الليلة، يا آن ماري؟

ـ لا.

تلفّظت بجوابها هذا من دون أن تمنعها المفاجأة من أن تلحظ بتعاسة، مدى سخافة مظهرها، لا سيّما مع المنشفة الكبيرة التي تظهر رأسها أكبر ثلاث مرات من حجمه الطبيعي: «لا، لكنني لا أراك تساعدني على وضع تلك الأحداث العارضة والمؤسفة كلها في أبعادها الصحيحة. أنا لم أحضر إلى هنا بحثاً عن علاقة عاطفية».

ـ أنا لا أتذكر أني قلت ذلك.

ـ من الأفضل أن تتذكر أنك فعلت وذلك من طريقة عناقك لي...

فهز كتفيه: «أنا لست ملاكاً، يا آن ماري. وعندما تبدي امرأة جميلة رغبتها أتأثر بسرعة كأي رجل آخر».

كان الأمر من السوء بقدر ما خشيت! فقد فسّر بدقة بالغة تلك اللحظة التي رمت فيها بنفسها بين ذراعيه. فقالت بحدة وقد شعرت بالمذلة: «مخيلتك أوسع من مخيّلة الكثيرين. لقد تعانقنا برضى الطرفين، فلا تضخم

الأمر ونجعله أكبر مما هو عليه . . . مجرد غلطة كبيرة حمقاء».

ـ بالضبط . . . كما أعتقد أنني قلت ذلك من قبل.

ـ كان عليّ أن أعرف أنك من الرجال الذين يقولون (قلت لك هذا).

ـ لكنني أخطىء أحياناً.

وزحفت ابتسامة بطيئة إلى شفتيه. ورغم محاولاتها، لم تستطع أن تهدىء خفقات قلبها المتسارعة حين قطع المسافة التي تفصل بينهما. وقالت بحدة: «أحقاً؟».

ـ بكل تأكيد. بالمناسبة، أنت مغرية جداً في هذه الملابس.

ـ لكن هذا لا يؤثر فيك أبداً.

وقبل أن تتكهن بخطوته التالية، نزع المنشفة عن رأسها ودس يديه في شعرها، وهو يقول بصوت لم تسمع بمثل إغرائه: «هذا أفضل بكثير. شعر كشعرك ينبغي ألا يوارى عن النظر أبداً».

وعندما استمر في ملامسة شعرها، قالتْ تحتج بضعف: «لا أظن أنّ عليك أن تفعل هذا. أظن أنّ هذا قد يقودنا إلى ارتكاب غلطة كبرى أخرى».

ـ وقد لا يحدث هذا. يعتمد هذا على وجهة نظرك.

لقد تساءلت كثيراً في الأيام القليلة الماضية عما إذا خدعتها ذاكرتها، وضخمت من ذكرى تلك الليلة وتركتها ضعيفة على مواجهته مرة أخرى.

لكن، عندما عانقها للمرة الثانية، أدركت مدى حماقة هذا التفكير. إذا كان العناق الأول قد فاجأها، فقد عصف بها هذا العناق بحيث شعرت بالعالم يميل تحت قدميها. وبدا أنه لا يتحكم هو أيضاً بعالمه.

كانت سولانج على صواب. فكل ذلك العداء السطحي ليس سوى قشرة لإخفاء التجاذب الذي تفجر بينهما بشكل عفوي مفاجىء. ولو أنها التقته في شارع بدلاً من أن تتعرف إليه في أملاكه، لكانت النتيجة واحدة. لم تكن بحاجة إلى أن تعرف اسمه أو أن يعرف هو اسمها. ولا حاجة به لأن يكون غنياً أو صاحب سلطة، أو أن تكون هي ناجحة مستقلة. الحقيقة

الوحيدة المهمة أنهما عرفا بعضهما البعض من بين كل الرجال والنساء في العالم.

هذا غير معقول! أنتما مجنونان!

تصاعد هذا التحذير من أعماقها لكنه سرعان ما خبا.

كانت على وشك الاستسلام لمشاعرها، بعد أن أخرست المنطق والتفكير. لكن صوتاً آخر تعالى مشحوناً بنفس العاطفة المشبوبة فجمّدها من الذعر. وكان الصوت قادماً من الجناح المجاور.

ـ آه.

رفعت صوتها بما يكفي لتغطي الصوت الآخر، ثم، وعلى سبيل الاحتياط تابعت: «آه، آه، آه!»

حدّق إليها وكأنها فقدت عقلها، ثم قال ببرودة: «يبدو عليك أنك تتألمين، فهل السبب هو شيء أكلته؟».

ردت بارتباك: «لا».

ـ إذن، لا بد أنني السبب. ما اعتقدت أنك وجدت اهتمامي بك منفراً إلى هذا الحد.

وفي اللحظة التالية، أصبحت وحدها، فشعرت بالخذلان والإحباط إلى درجة تركتها عاجزة عن الوقوف.

* * *

٦ ـ أخطاء لا تُغتفر

في اليوم التالي تلقّت آن ماري دعوة لشرب الشاي عند العصر مع جوزيفين. لكن هذه الدعوة ما لبثت أن تحوّلت إلى لحظات من البهجة المشتركة وإلى طقس من الطقوس اليومية. كانت سولانج تشاركهم الجلسة أحياناً، أما أدريان فكان دوماً ينتظر حضور صديقته الحميمة بفروغ صبر.

كانت المرطبات تقدّم في الشرفة المطلة على الحدائق وتترافق مع مجموعة من الأطايب. وكانت جوزيفين تتصدر طاولة منخفضة يعلوها شرشف ناصع البياض وطقم شاي ذو نوعية ممتازة.

ـ والدة إيثان هي التي بدأت هذا التقليد.

في ذاك اليوم كانت سولانج قد خرجت مع فيليب لزيارة بعض الأصدقاء، فيما راح أدريان يلعب في الحديقة مع قطيطته بعد أن سئم من أحاديث الكبار: «لقد ولدت في لندن، ورغم أن أباها كان طبيباً في سانت فنسنت هنا في الجزر الكاريبية، إلا أنها نشأت في إنكلترا وتمسكت بعاداتها».

تناولت آن ماري فطيرة مسحت عليها زبدة: «كيف تعرفت إلى والد إيثان؟».

ـ عندما بلغت التاسعة عشرة جاءت إلى هنا في إجازة فتعرفت إليه في سباق للخيل في «باربادوس». سباقات الخيل مهمة في هذه البلاد. عليك أن تطلبي من إيثان أن يريك اسطبلاته يوماً ما حين لا تكونان مشغولين.

ـ سيسرّني ذلك.

لكن ذلك لا يعني أن الفرصة ستسنح لها! فهي لم تره منذ زيارته لها تلك الليلة. في البداية، بدا منجذباً إليها بقدر انجذابها إليه، وعناقهما يشهد على ذلك. لكنها سرعان ما دفعت ثمن محاولتها أن تغطي الأصوات التي تعالت من جناح سولانج. والأسوأ هو أنها كانت عاجزة عن تقديم تفسير معقول لتصرفها المفاجىء ذاك.

ناولتها جوزيفين كوب الشاي وهي تقول: «إنه شاي فاخر، فأرجو أن يعجبك يا عزيزتي».

ـ شكراً.

ورشفت السائل الحار المعطّر فوجدته لذيذاً منعشاً رغم الحرارة الاستوائية: «ووقعا في الحب؟».

طرفت جوزيفين بجفنيها: «من؟ أتعنين باتريسيا وأندريه؟ كانت من أسرة «غريفيث» المشهورة بعلمها، والأرستقراطية للغاية. أما أندريه فمن آل بومونت أيّ صفوة الصفوة في هذه البلاد. اشترى والد جد إيثان هذه الجزيرة سنة ١٩٢١، وكانت أرضاً فرنسية حزينة لا تحتوي على سوى القليل من حقول القطن والذرة والبازلاء، فضلاً عن قطعان من البقر والغنم... لم يكن فيها ما يرغب الإنسان في العيش معه في هذه الأيام، لكنه أنقذها من الإهمال وحولها إلى مجتمع راقٍ.

ـ وباتريسيا؟

أرادت آن ماري أن ترضي فضولها وتعرف المزيد عن تاريخ أسرة إيثان.

ـ سأصل إلى ذلك الجزء من القصة. كان أبي مبذراً للغاية، وعندما استلم الميراث بدّد ثروة الأسرة وترك الجزيرة تتراجع وتضعف. لهذا، كان سقوطه عن حصانه وموته حدثاً مباركاً إذ ترك كل شيء تحت سيطرة أخي الأصغر ووالد إيثان، أندريه.

قالت آن ماري وهي تخفي ابتسامتها: «فهمت».

بدا جلياً أن مضيفتها ليست من الذين يوزعون عواطفهم على من لا يعتبرونهم أهلاً لها!

ـ كرّس أندريه نفسه لإصلاح «بيلليفلير». بساتين الحمضيات تلك وأشجار جوز الهند التي مررت بها يوم وصولك إلى هنا، هي جزء من عمله، وكذلك مزارع القطن. لقد عبّد الطرقات وبنى مدرجاً للطائرات ومدرسة. وبدأ برنامجاً لتربية الخيول وهذا ما جعله يذهب إلى «باربادوس».

ـ حيث تعرف إلى باتريسيا.

ـ بالضبط. كان حباً من النظرة الأولى بالنسبة إليهما معاً. كانت خارقة الجمال، أما أندريه...

وتنهدت جوزيفين وقد تندّت عيناها بدموع الذكريات الحلوة: «كان وسيماً للغاية! كل بنات الجزيرة الصالحات للزواج بكين قليلاً عندما أحضر عروسه إلى بيته. إيثان يشبهه كثيراً، لكن عينيه كعيني أمه».

ـ قلت إن أندريه كان وسيماً فهل معنى هذا أنه مات..؟

ـ الجهد الذي بذله في إصلاح الجزيرة حتى تنجح وتزدهر، قتله. لقد أرهق نفسه حتى الموت.

وأخذت تعبث بخاتم زواجها وهي تغالب دموعها: «لقد فعل ذلك عمداً، لأنه لم يعد يعبأ بالحياة».

ـ وباتريسيا؟

ـ ماتت أثناء ولادة ابنها، بعد سنة من قدومها عروساً إلى «بيلليفلير». كانت مأساة فظيعة، ما كان لها أن تحدث قط. ولكن لم يكن لدينا مستشفى هنا حين جاءها المخاض كما هبت عاصفة فظيعة من المحيط الأطلسي ما جعل مغادرة الجزيرة أمراً مستحيلاً. بعد ولادة إيثان، بنى أندريه مستشفى وسمّاها باسمها.

ـ يا للمسكين! لا بد أن قلبه تحطم.

ـ بل تحطمت روحه. لام نفسه لموت زوجته، فانطوى على نفسه بشكل مخيف ولأشهر طويلة. لكن كان لديه طفل عليه أن يرعاه، ولد بحاجة إلى أم. ولم أكن أقيم هنا حينذاك لأن عمل لويس اضطرنا للبقاء في أوروبا. وهكذا، وبعد سنتين، تزوج أندريه مرة أخرى. كانت سيلين امرأة طيّبة

وزوجة مخلصة وقد أعطته ابناً آخر هو فيليب.

ـ ما كان شعور إيثان حيال ذلك؟

ـ كان مسروراً للغاية! كان في الخامسة من عمره حينذاك ولم يعرف أمه قط، سيلين هي الأم الوحيدة التي عرفها، ولهذا يشعر بالغيرة التي يشعر بها الطفل الأكبر حين يرى امرأة أخرى تحلّ مكان أمه. كان حريصاً جداً على حماية أخيه الصغير.

ـ ومع ذلك، يظهر من لهجتك ومن التعبير الذي ارتسم على وجهك، أنّ هذه الأسرة الجديدة لم تنته على خير.

فتنهدت جوزيفين: «لا، مع الأسف. أحبّت سيلين أندريه من أعماق قلبها. كما أحبها هو أيضاً، نوعاً ما. لكن، ليس كما أحب باتريسيا، وقد أدركت ذلك. كانت امرأة صاحبة كبرياء، وقد تعبت من التنافس مع شبح شاعرة دوماً أنها الثانية، لذا رحلت عندما أصبح فيليب في الثامنة من عمره. ولم يسمح لها أندريه بأخذ الصبي معها. كانت سيلين كاثوليكية، لهذا لم يحصل أيّ طلاق بينهما، فالتحقت بدير فرنسي محتفظة بصفتها العلمانية، لكنها اختارت الرهبنة حين أصبحت أرملة بعد سبع سنوات. كان إيثان في العشرين من عمره عندما مات أبوه وتركه مسؤولاً عن الجزيرة وعن أخيه المراهق المتمرد حينذاك».

تصاعد صوت خفيف طغى على صوت المروحة في السقف فالتفتت المرأتان وإذا بإيثان يقف عند عتبة الباب، وكأنه يسترق السمع: «لا أتصور أن ضيفتنا تهتم مثقال ذرة بقصة أسرتنا القديمة الحافلة بالأمجاد، يا جوزيفين».

تكلّم بجفاء ونظراته تمرّ بآن ماري بعدم اكتراث أذهلها. فقالت: «بل على العكس، فأنا أستمتع بسماع أخبار آل بومونت وأعمالهم».

عندئذ سألها باستياء وعدم لباقة: «لماذا؟».

أوشكت أن تقول له إنها ترجو أن يقنعه ذلك بأنها ليست حيواناً زاحفاً كما يظنها.

ـ تاريخ الأسر يخلب لبي، ربما لأن تاريخ أسرتي قصير جداً.

مدت جوزيفين يدها: «لم أكن أعلم أنك عدت. هلاّ شاركتنا في شرب الشاي يا عزيزي وحدثتنا عن رحلتك».

كان مسافراً ولم يكن يتجنبها. وتملكتها موجة من السرور لم تكد تلحظها حتى بددها بقوله: «كان بإمكاني أن أحل المشكلة في ساعتين».

وتناول من عمته فنجان الشاي وراح ينظر من النافذة إلى الدغل خلف الحديقة.

ـ استيقظت باكراً جداً هذا الصباح. كان الظلام يلف المكان عندما سمعت صوت السيارة ترحل.

ـ آسف، هل أزعجتك؟

ـ أنا لا أنام جيداً حين أعلم أنك في طريقك إلى منصة البترول. تلك العملية بأكملها تتركني غير مرتاحة أبداً.

الابتسامة التي منحها لعمته والمليئة بالدفء والحنان جعلت آن ماري تحسّ بالحسد.

ـ إدارة الجزيرة تتطلب مالاً يا عمتي جوزيفين، ولدينا واجبات نحو جيل المستقبل في الجزيرة.

ـ كان أبوك يعتمد على موارد الجزيرة الطبيعية.

ـ لم تعد تكفي، كما أنني أحب التغيير.

أجابت متوترة وقد بدا عليها الإحباط: «أحقاً؟».

ثم أردفت: «حسناً، على آن ماري أيضاً أن تغيّر نمط حياتها. إنها تجهد نفسها في العمل فاقترحت عليها أن تريها اسطبلات خيولك».

تحوّلت نظراته الباردة إلى آن ماري مرة أخرى: «أشك في أن تهتم بذلك حقاً».

تملكها الغضب ليحلّ محل ذلك التفاؤل العنيد: «لما لا تحاول أن تسألني بدلاً من أن تتصرف وكأنني قطعة أثاث غير قادرة على الكلام عن نفسي؟».

رفع حاجبه وقال بغطرسة: «هل تركبين الخيل؟».

ـ ربما ليس بمقدرتك أنت لكنني أستطيع أن أقدّر الحيوانات الممتازة.

ـ هل تعرفين ما ينبغي أن تبحثي عنه في الحصان؟

ـ أتعني بالإضافة إلى ساقين أكثر مما لديك ورأس أكثر وسامة؟

عبس وبدا عليه الغيظ فيما انفجرت جوزيفين ضاحكة: «أنت نسمة من الهواء النقي يا طفلتي، وهذا ما يحتاجه هذا الرجل لكي يتذكر أنّ في الحياة شيء آخر غير العمل!».

وألقت جانباً منديلها المطرز وهي تهتف مبتهجة: «ساعدني على النهوض يا إيثان. حان وقت القيلولة».

وعندما ذهبت عمته، قال لآن ماري: «أظن أنّ عليك أن تذهبي أنت أيضاً».

ـ أظن ذلك.

شعرت بالوحشة والحرمان، فأخذت تنفض فتات الخبز عن تنورتها ثم اتجهت إلى الدرجات المؤدية إلى الحديقة.

ـ هل تعرفين الطريق؟

ـ بالتأكيد، فقد أصبحت أعرف الأنحاء.

ـ وثوب العرس؟ ألم ينته بعد؟

ـ ليس تماماً. احتجت إلى مزيد من الخرز، وأنا أنتظر وصول المزيد منه من «فانكوفر».

ـ أرجو ألاّ تعتمدي على الطرود البريدية.

ـ لا، فأنا أستعين دوماً برسول.

ـ هذا حسن، لأن البريد إلى الجزيرة لا يعتمد عليه.

مثل هذا الحديث التافه لا يتناسب مع رجل كان منذ لحظة متلهفاً بشكل مهين لكي يراها تخرج: «ما هو الغرض من هذه الأحاديث التي تؤخرني عن الخروج، يا إيثان؟ هل هناك شيء ما تريد أن تقوله لي بدلاً من أن تضيّع وقتي ووقتك؟».

فقال وهو ينظر إلى المشاهد الخارجية: «أبداً! لا شيء على الإطلاق».

www.elromancia.com

- إذا كنت خائفاً من أن أتجاهل قرارك القاضي بأن أبقى بعيدة عن أدريان فأرح نفسك.

- أنا لست كذلك.

قال ذلك وقد بدا مستغرقاً في تأمّل طيور الطنان وهي تتواجه في ما بينها لكي تأكل من أحواض الزهور: «لم يخطر في بالي قط أنك ستتجاهلين طلبي هذا. وما دمت لست مشغولة حالياً بثوب الزفاف فسأتوقع حضورك إلى الإسطبلات في الساعة التاسعة من صباح الغد».

- حضر نفسك إذن لخبر سيء، فتوقّعك هذه المرة لن يتحقق. ما زلت مشغولة بملابس العروس ولا أستطيع تضييع فترة الصباح.

كان هذا كذباً. فباستثناء اللمسات الأخيرة، انتهت الثياب كلها، ولديها لأول مرة وقت فراغ.

- هذا مؤسف. ربما في يوم آخر؟

فهزت كتفيها وقالت بعدم اكتراث يماثل عدم اكتراثه: «ربما».

ومن دون أن تعبأ بتوجيه كلمة أو نظرة أخرى إليه، انطلقت تعبر الفناء.

* * *

وتتالت الأيام المشمسة والليالي العابقة بأريج الأزهار والمرصعة بالنجوم.

كانت تسبح ثلاث مرات في اليوم في بركة السباحة، وتحتسي الشاي مع جوزيفين، كما رسمت صوراً لأدريان، ولعبت «الكريكيت» مع لويس.

واسترخت هي وسولانج بكسل على المقاعد المريحة في الممرات المظللة التي تصل جناحيهما، وهما تتذكران الأيام الخوالي. وقبل أن تخلد إلى النوم، كانت تنزل إلى الشاطىء وتجلس على صخرتها المفضّلة تتأمل طلوع القمر.

عدا عن العشاء في كل ليلة، بقي إيثان بعيداً عنها، لكن ذلك لم يخفف من افتتانها به. كانت وجبة الطعام تطول وتدوم أحياناً ساعتين أو أكثر، لكن مهما بلغت لذة الطعام أو تشويق الحديث، لم يكن ذلك ينافس سحره.

ولم يكن هو غافلاً عنها كما يحاول أن يظهر. وكانا أحياناً، إنما نادراً، يتشاركان لحظة تسلية بسبب ما تقوله جوزيفين، لكنه اعتاد أن يعامل آن ماري بتهذيب جاف في أغلب الأوقات.

ومع ذلك، ورغم كل جهوده لإخفاء اهتمامه، كانت تعي نظراته وهي تستقر عليها عندما يظن أنها غافلة عنه.

ورغم كل ما حدث، أدهشها أن تتلقى اتصالاً هاتفياً منه في بداية أسبوعها الرابع على الجزيرة. قال لها: «طلبت بعض قطع الغيار من خارج الجزيرة وستصل هذا الصباح، وسأذهب الآن إلى المطار لأحضرها. فهل تودّين مرافقتي؟ ثمة طرد لك ينتظرك أيضاً».

ردّت: «نعم».

إنها فرصة لتكون وحدها معه لبعض الوقت مهما كان قصيراً.

- انتظريني إذن في الفناء الأمامي بعد نصف ساعة. اعتمري قبعة فالحرارة مرتفعة اليوم وأكره أن تصابي بضربة شمس.

لم يرد في حديثه كلمة (أرجوك) لكن اهتمامه بمصلحتها لطّف من حدّة أوامره.

تركت الهاتف وأسرعت تخلع المئزر الذي تلفه حولها في البيت، ثم ارتدت ثوباً قطنياً أخضر باهتاً ومنقوشاً بأزهار وردية صغيرة، ثم اعتمرت قبعة من القش.

عندما قابلته، أدهشها بقوله: «تبدين لذيذة باردة ومنعشة. لقد لوّحت الشمس بشرتك».

أوشكت أن تقول له إنه يبدو أسطورياً، إلاّ أنّ مديحه لها عقد لسانها.

قادها إلى خارج الفناء المسوّر حيث صعدا في سيارة رولزرويس بيضاء. سألته وقد أرسلت لمسته الشوق في كيانها: «هل سيرافقنا أدريان؟».

- لا. إنه في المدرسة.

- لم أكن أعلم أنه يذهب إلى المدرسة. ظننت أنّ لديه معلّماً خاصاً.

- أنت مخطئة فهو يذهب إلى المدرسة المحلية، إنما في الصباح فقط. إنه

www.elromancia.com

في الصف التمهيدي. ألم تجدي أبداً فرصة لتتفرجي على المدينة؟

ـ لا.

وضع نظاراته الشمسية على عينيه ثم اتجه بسيارته الأنيقة المكشوفة إلى الطريق المنحدر. وانفتحت البوابة الحديدية المزخرفة بهدوء مع اقتراب السيارة منها، لتعود وتغلق بعد اجتيازها: «سأريك معالم المدينة، بعد أن نحضر أغراضنا. أظن أن الطرد يحتوي على الخرز الذي ستكملين به ثوب سولانج».

ـ أرجو ذلك. فموعد العرس يقترب بسرعة.

ـ سنذهب إلى «فلوريدا» بالطائرة ونتسوّق في «ميامي». عند الضرورة، ستحصلين على حاجتك بأي طريقة.

ـ أرجو ألا يضطرنا الأمر إلى ذلك. لكنني أشكرك على عرضك هذا.

ـ ليس لي فضل في ذلك، فالعرس لآل بومونت ويفترض أن يكون كاملاً ومن دون أيّ عيب.

كلامه حطّم أي أمل راودها في أنه يسعى إلى إرضائها في المقام الأول.

ـ طبعاً! كم أنا غبية فقد ظننت أنك ربما ستتعب نفسك من أجلي.

قال وقد ارتسم على وجهه تعبير غامض خلف زجاج النظارات: «الاثنان يصلان إلى النتيجة نفسها. فعدد الضيوف يقارب الثلاثمئة وسيرون كلهم عملك، ولا شك في أنه سيعجبهم بما يكفي ليكلّفك البعض منهم ببعض التصاميم».

ـ شكراً جزيلاً. فلدي من الزبائن أكثر مما أحتاج.

ـ ألا تهمك رؤية شركتك تكبر؟

مرّا في المدينة الصغيرة، ومكّنها سطح السيارة المكشوفة من أن ترى سطوح القرميد، والأزهار التي تتسلق الأبواب والأسيجة. وقرب رصيف الميناء، كان الشارع الرئيسي يعجّ بالمتسوّقين الذين احتشدوا حول منصات السمك الطازج والفاكهة والخضار والمواد الغذائية الأخرى.

بالرغم من الحركة النشيطة إلاّ أنها كانت أقل حدّة مما هي عليه في

مدينتها «فانكوفر». فالناس هنا يتمهلون حقاً ليستنشقوا رائحة الأزهار. وهنا يمكن دوماً تأجيل العمل إلى الغد.

ـ حسناً، يا آن ماري؟ ألا ترغبين في زيادة إنجازاتك المهنية؟

ـ لا.

ردّها أدهشها بقدر ما أدهشه من دون شك لكنها أردفت تقول: «أنا أعشق عملي، لكنه لا يشعرني بالاكتفاء ولا يملأ حياتي كلها. إنه لن يفعل ذلك قط».

ـ وكيف ذلك؟

ومرة أخرى، أدهشت نفسها حين أجابته: «في نهاية حياتي، وعندما ألتفت إلى الخلف لأرى إنجازاتي، لن يكون تصميم الملابس هو الأهم».

ـ وما الذي سيكون مهماً؟

ـ بيت حقيقي.

فقال مشككاً: «ألا تملكين ذلك؟»

ـ بل أملك منزلاً جميلاً في المدينة، إذا كان هذا ما تعنيه. وهو مريح للغاية، وموقعه ممتاز. كما أنه يناسبني حالياً تماماً. لكنني أريد أن يتذكرني الناس بشيء أهم من كومة أثاث أو عدة تصاميم للمسرح قد ينسونها قبل أن أنساها أنا. أريد أن أترك خلفي إرثاً من الحب.

ـ وكيف يمكنك ذلك؟

قالت وقد امتلأ قلبها برغبة بدأت تشعر بها منذ عشرين عاماً، منذ علمت أنها أصبحت يتيمة: «ببناء أسرة».

وأضافت: «مع زوج وأولاد».

تحوّل إلى الطريق المؤدي إلى المطار وهو يقول: «إمرأة عاملة ناجحة تتخلى عن كل ما أنجزته من أجل بهجة لا معنى لها في تغيير حفاض طفل ومسح الأرض؟ لا أجد هذه الصورة مناسبة لك... إلا إذا كنت تخططين طبعاً للزواج من أجل المال».

كان بإمكانها أن تصفعه، وهو يستحق ذلك حتماً: «أتراني نسيت أن

www.elromancia.com

أذكر أنني لست بحاجة لزوج غني؟ وأنني أملك ما يكفي، وما يمكنني من الزواج برجل فقير. شرطي الوحيد هو أن يحبني من أجل نفسي وليس من أجل ما أملك؟».

- وهل هذا يكفي ليجعل المرأة سعيدة؟

تملكها الغيظ فطرحت عليه السؤال نفسه: «وهل هذا يكفي بالنسبة إلى الرجال؟».

فقال: «نعم. وغالباً ما يندمون، لأن أهداف معظم الرجال بسيطة وغير معقدة، بينما غالباً ما يكون للنساء دوافع خفية».

بدا وكأن سحابة غير مرئية حجبت شمس هذا النهار المشرق: «هل نحن نتحدث عن زوجتك السابقة مرة أخرى؟».

- إنها من هذا النوع بالتأكيد.

تلهفت لأن تسأله عما فعلت تلك المرأة لتجرحه إلى هذا الحد. لكنها أحست أنه سيرفض الإجابة عن سؤالها، فقالت بدلاً من ذلك: «أتظن أن لسولانج دوافع خفية في زواجها من أخيك؟».

- سولانج مختلفة.

- نحن جميعاً مختلفون، يا إيثان. هذه وجهة نظري، وأنت أذكى من أن تصدر هذا التعميم السطحي وتقتنع به حقاً. لكل منا عقله الخاص، يختار به كيف يعيش حياته. نحن نرتكب أحياناً بعض الأخطاء. لكن معظمنا يتعلم من أخطائه فيتابع لكي يقوم بخيار أكثر حكمة في المستقبل.

أوقف سيارته أمام المطار الصغير، ثم فتح بابه وخرج وهو يقول: «وبعضنا لا يفعل. بعض (الأخطاء)، كما تسمّينها لا تُغتفر. هل ستدخلين المطار أم تفضلين الانتظار هنا؟».

قالت ذاوية إزاء مرارته العنيدة: «سأدخل طبعاً».

هل أحب زوجته إلى حدّ كبير ما جعلها قادرة على أن تجرحه؟

* * *

٧ ـ هل الحب ضعيف؟

لقد أدّت دورها جيداً، هذا رأيه فيها. لم تزل قدمها قط حتى أنها لم تتلعثم... قال بعد أن أنهيا مهمتهما في المطار: «سنتناول الغداء في نادي بلانتاسيون. إنه يطل على حوض اليخت. إذا أردنا التمتع بالنسيم فسنجد مبتغانا هناك».

قالت باحتشام: «يبدو اقتراحاً جميلاً».

وأحنت رأسها فحجبت حافة القبعة وجهها. ولو لم يكن يعرفها جيداً، لانخدع بها وظنها خجلى.

كان النادي مزدحماً كالعادة، لكن المسؤول قادهما إلى مائدته الخاصة على الفور. وأدرك إيثان الاهتمام الذي أثاره ظهوره مع امرأة غريبة، اكتسحت المكان بثوبها الباهت الخضرة فكانت أشبه بالربيع المنعش. راح يحني رأسه في تحية للوجوه المألوفة ومن دون أن يلاحظ أيّ رد فعل لديها على الاهتمام الذي أثارته. أجلسها في الزاوية ووضع كرسيها بقربها، وعندما سألها عما تريد أن تشربه، أجابت: «شاياً مثلجاً».

- بل جربي شراب الجزيرة الخاص بدلاً منه. إنه منعش جداً.

وقبل أن تنطق بأي احتجاج أمر النادل بأن يحضر كأساً لكل منهما.

خلعت قبعتها وألقتها بعدم اهتمام إلى جانب حقيبتها على الأرض. قالت له بتمرد: «هل ستختار لي طعامي أيضاً؟».

وتألقت عيناها فوجدها جذابة للغاية وردّ: «في الواقع، نعم».

كانت قد رفعت شعرها عند قمة رأسها، لكن خصلة منه أفلتت وتدلّت على رقبتها. كبح رغبة في أن يمد يده ويعيدها إلى مكانها، ثم أشار إلى النادل قائلاً: «أحضر لنا سلطة محار، يا هاملتون».

عاد النادل بالشراب بعد برهة. وعندما ابتعد مرة ثانية رفعت رأسها تتنشق الهواء، وقالت: «أنت على حق. المكان هنا منعش للغاية».

- يسرّني أنه أعجبك.

فقالت باسمة: «ألن تقول لي إنك دوماً على صواب؟».

- أنا دوماً على صواب بنسبة تسعة وتسعون فاصل تسعة في المئة.

فضحكت ضحكتها الموسيقية التي أسرت قلبه: «أتعني أنك ظننت ذات مرة أنك اقترفت غلطة، لكنك كنت مخطئاً؟».

ثم وضعت أصابعها على فمها وقالت بندم: «أنا آسفة! لم يكن قولي هذا لطيفاً جداً، وأنا لم أقصده!».

- لماذا أجد صعوبة في تصديقك؟

- ربما لأننا أصبحنا ماهرين جداً في قول ما لا نعنيه حقاً، يا إيثان، وماهرين جداً في الوصول إلى الاستنتاجات الخاطئة عن بعضنا البعض.

ثم أضافت: «ما رأيك في عدم فعل ذلك بعد الآن؟».

ذكرى عناقهما الأخير عادت إلى ذهنه، لا سيّما ذلك الأنين المصطنع الذي صدر عنها. لم يعجبه أن تفتح عينيها على اتساعهما، فقد بدت أشبه بمهرة فزعة منها بامرأة جرفتها المشاعر المحمومة: «هل هذا ممكن؟».

- يمكننا دوماً أن نحاول. أليس كذلك؟

- لأي سبب؟

- أنت قلت بنفسك إننا لا يمكن أن نتجنب بعضنا بعضاً، فلماذا نجعل الأمور أكثر إرباكاً مما هي عليه؟

ورشفت شرابها: «هذا لذيذ. بالمناسبة إذا كان الطعام الذي طلبته بنصف لذة هذا، فسأضطر لأن أسكت كبريائي وأجعلك تطلب ألوان الطعام كلها في المستقبل».

- على الأقل أثناء ما تبقى من فترة إقامتك هنا.

لفت انتباهه شخص وقف في الباب. ورغم ضوء الشمس خلفه، إلاّ أنه لا يمكن أن يخطىء في تحديد هوية هذا الشخص.

إذن لقد عاد روبرتو سانتوس إلى «بيلليفلير»؟.

سمّره إيثان بنظراته، يتحداه بصمت. وقف سانتوس لحظة يتفحص الموائد، ثم أحس بأنه مراقب فجالت نظراته على الحضور لتصطدم بنظرات إيثان.

أمال رأسه يحاول أن يبدي بعض الغطرسة، لكن محاولته ذوت تحت نظرات عدوّه الجامدة.

وإذ أدرك أن كل واحد من الحضور مهتم بأن يرى كيف سيعالج الوضع، نصب قامته ثم سار بين الموائد حتى وصل إلى إيثان. قال بلكنته الإنكليزية الواضحة التي يجدها البعض لا تقاوم: «لقد مضى وقت طويل. كيف حالك يا صديقي؟».

- مثل معظم الناس على الجزيرة. عدم اضطرارهم للعيش فيها معك يجعلهم أفضل حالاً. ما الذي أعادك إلى هنا، يا سانتوس؟

قال بوقاحة: «وما الذي يعيدني دوماً؟ السيدات الجميلات، طبعاً. هل ستقدمني إلى مرافقتك الجميلة؟».

بادلته ابتسامته وقد أسبلت أهدابها الطويلة السوداء.

- لا. إنه امتياز أحتفظ به للأصدقاء وهذا لا ينطبق عليك. أنت تظهر بلونك المعتاد الذي هو البرتقالي، يا سانتوس. ألم يناسبك السجن؟

أظلم وجه الرجل باحمرار بشع: «أرى أن محاولة التخفيف من حدة خلافاتنا غلطة. من الواضح أنك رجل يفضل الحفاظ على حقده».

وضم كعبيه وانحنى بجفاء: «الوداع يا سنيورينا! ربما سنتقابل في وقت آخر، في ظروف أسعد».

فقال إيثان: «إلاّ إذا كان لدي اعتراض على ذلك».

بدا الذهول على آن ماري، ثم قوّت عزيمتها قبل أن تخترق الصمت

الذي خلّفه سانتوس بعد انسحابه: «هل أنت مضطر للتصرف بهذه القسوة؟ حاول الرجل فقط أن يكون اجتماعياً».

ـ ألم تسمعيني أشير إلى أنه كان في السجن؟

فقالت متهكمة: «بلى. لا أظن أحداً في القاعة فاته ذلك».

ـ إذن ما الذي جعلك تظنين أنني مدين له بإظهار التهذيب؟

ـ ربما لأنه أكمل مدة سجنه وينبغي ألا يهدده الماضي بعدئذ.

ـ أنت لا تعرفين شيئاً عن ماضيه. وإلا لما شعرت بمثل هذه الشفقة عليه.

ـ ربما لا. لكني أعرف أنك كنت الآن فظاً لا تُحتمل، وأذللته في قاعة مليئة بأناس يبدو أنهم يعرفونه.

أخذ إيثان نفساً عميقاً، وراح يقلّب في ذهنه مسألة أن يخبرها المزيد، لأنها كانت على حق في ناحية واحدة، وهي أن الماضي انتهى. لكنه إذا بقي صامتاً، فسيسمح لسانتوس بأن يصبح في نظرها الضحية وليس المذنب، فهل يمكنه أن يحتمل ذلك؟

قال بجفاء يحدّثها بجزء من القصة: «لقد أدين بسبب قيادته السيارة وهو ثمل».

فخفضت بصرها وبدت عليها الرزانة.

ـ حسناً، أنا أوافقك الرأي. فهذا التصرف ليس مصدر فخر له.

ـ لا، طبعاً. خاصة وقد وجدوا طفلاً في سيارته عند القبض عليه.

حملقت فيه بانزعاج بالغ: «وهل تأذى الطفل؟».

ـ لا. لم يصب أيّ من الطفل أو أمه بأذى.

أخذت نفساً مرتجفاً: «كانت زوجته موجودة ولم تفعل شيئاً لتمنعه من القيادة وهو ثمل لتنقذ حياة طفلهما؟».

ـ لم يكونا زوجته وطفله هو، بل زوجتي أنا وطفلي.

اندفعت تضع يدها على يده وهتفت: «إيثان! أنا آسفة!».

ـ لماذا؟ لا علاقة لك بالأمر.

ـ لكنني أسأت الحكم عليك وبسرعة، بعد أن اتفقنا على ألاّ نتسرع في الحكم على بعضنا البعض.

ـ في الواقع، نحن لم نضع اتفاقية بهذا الشأن، لكن هذا لا يهم. كما أن سانتوس لم يعد مهماً، وهو لا يستحق أن نفسد غداءنا من أجله. ها قد وصلت سلطتنا.

طلب زجاجة مياه معدنية، ثم بدّل موضوع الحديث: «هل يحتوي الطرد على الخرز الذي ستنهين به ثوب زفاف سولانج؟».

أجابته وعيناها تحدقان إلى شيء ما خلفه: «نعم».

حسناً، ما الذي توقعه؟ أن تتعلق بكل كلمة يقولها وكأنها تهتم حقاً بما يقوله؟ إنها فتاة سطحية كما حكم عليها منذ البداية. وأي رغبة في أن يغيّر رأيه فيها، تبدّدت تلك الليلة: «لا بد من تقديم طلب خاص للحصول عليها، لهذا استغرقت وقتاً طويلاً لتصل. لكن الآن، وبعد وصولها، سأنهي الثوب بسرعة».

ـ إذن، ربما بعد أن تنهي الثوب، ستلبين دعوتي لزيارة الإسطبلات.

قالت بغموض وعيناها لا تزالان تنظران خلفه: «ربما سأفعل».

ـ ما الذي يثير فضولك، يا آن ماري؟ لا تقولي لي إن سانتوس ما زال هنا وهو يغازلك بعينيه من بعيد.

ـ لا، بل هي امرأة دخلت لتوّها. ومن الطريقة التي تنظر بها إلى هنا، أدركت أنها تعرفك من دون شك. بل أنا واثقة من ذلك لأنها متوجهة الآن إلى هذه الناحية مباشرة.

رفع نظره وإذا بديزيريه لاسال تقترب منهما. حضورها بعد زيارة سانتوس غير المرغوب فيها، كان أمراً هو بغنى عنه.

ـ أهذا أنت يا إيثان؟ كنت واثقة من أنني مخطئة.

قال بمرح وهو يقف ويقبل خدها المعطر الذي قدمته إليه: «هل تغيرت إلى هذا الحد منذ رأيتني آخر مرة؟»

فتراجعت وزمت فمها بشكل جميل متصنعة الاستياء: «حسناً، كان

ذلك منذ أسابيع يا عزيزي . . . وأنا لم أتوقع . . . ».

أن تراه مع امرأة أخرى؟ كان بإمكانها أن تقول ما تفكر فيه بوضوح.

قال، مدركاً أنه لا يمكن أن يرفض تقديمهما إلى بعضهما البعض: «أريدك أن تتعرفي إلى وصيفة العروس الأولى، آن ماري باركلي. هذه ديزيريه لاسال، يا آن ماري».

ـ آه، إنها الخياطة! سمعت عنها من أنجيليك. حسناً، يا للطفك إذ دعوتها إلى مكان كهذا، يا إيثان!

وشبكت ديزيريه ذراعها بذراعه بإلفة، وقد استحال الزم في شفتيها إلى ابتسامة دافئة مفاجئة وهي تلتفت إلى آن ماري: «هل تجري أعمال الخياطة على ما يرام يا عزيزتي؟».

فقالت آن ماري بصوت يجمع بين الرقة والعذوبة: «آه، نعم. شكراً جزيلاً على سؤالك هذا! وأنا ممتنة جداً للسيد بومونت إذ منحني بضع ساعات فراغ ليريني معالم المدينة. هذا شرف حقيقي».

ـ يسرّني أن تدركي كم أنت محظوظة، إذ ليس من عادة إيثان أن يرافق أجيراً لديه في زيارة الجزيرة.

سألها إيثان إذ لم يعجبه اتجاه الحديث أو التوتر الذي يصاحبه: «هل أنت هنا وحدك يا ديزيريه؟».

فأجابت وهي تغرقه بابتسامة أخرى: «كلا، في الواقع، أنا مع بعض الأصدقاء».

ـ حسناً، لا تدعينا نبعدك عنهم.

ـ ليس لديهم مانع. حتى أنهم لن يفتقدوني إذا كنت تفكر في أن تطلب مني مرافقتك.

ـ ربما في وقت آخر، لأنني على وشك مغادرة المكان.

ثم أضاف وهو ينتزع ذراعه من ذراعها: «إذا انتهيت من العبث بتلك السلطة يا آن ماري . . .؟».

فقالت آن ماري وقد استحال صوتها جليدياً: «تماماً، فقد فقدت

شهيتي، وأظن أني أعاني من عسر الهضم».

فقالت ديزيريه: «لعلك تعرّضت للشمس بكثرة».

ـ ربما السبب هو الهواء الساخن.

ووضعت القبعة على رأسها فأخفت حافتها وجهها.

وعندما أصبحا في الخارج قال لها: «أتشعرين برغبة في المشي عسى أن تهدأ معدتك؟».

ـ إلا إذا كنت ترغب في العودة سريعاً.

ـ لو كنت كذلك لما عرضت عليك المشي. سنمشي حتى السوق، فتتعرفين على الحياة المحلية.

ـ كما تشاء.

وهزّت كتفيها بعدم اكتراث.

ـ أتحبين النزهات البحرية؟

ـ لا. لما تسأل؟

ـ لأنني أملك اليخت الأبيض الراسي في الحوض الثاني هناك، وكنت سأدعوك إلى رحلة بحرية في المساء. ولكن إذا كنت لا تهتمين بذلك . . .

فقالت ببرود: «لعلك نسيت كيف مات والداي. لكن إذا كنت تبحث عن الصحبة، فأنا واثقة أن الآنسة لاسال ستكون سعيدة بمرافقتك».

فقال بندم حقيقي: «أعتذر منك، فهذا تصرف عديم الإحساس حتى مني».

قالت قبل أن تستغرق في صمت عميق: «جميل جداً».

سارا بصمت مسافة مئة متر أو نحو ذلك، ثم انعطفا إلى طريق ضيق تحيط به من الجانبين أشجار يحرك النسيم أغصانها.

حاول أن يحدّثها: «بعض السكان الأصليين يعيشون هنا، في بيوت ممتازة وسط حدائق رائعة الجمال. بعد أيام قليلة سترين بنفسك أحد هذه المنازل. فآل تورنو سيقيمون يوم الخميس حفلة قبل العرس. لقد سبق أن رأيت أنجيليكا، فهي وصيفة العروس الثانية».

www.elromancia.com

ساد صمت آخر. وأخيراً قالت: «أنت تخرج معها، أليس كذلك؟».

ـ من؟ أنجيليكا تورنو؟ يا إلهي، كلا! ما الذي جعلك تطرحين سؤالاً كهذا؟

فقالت بحدة: «أنا لا أتحدث عنها، فهي أكثر ظرفاً وأفضل تربية! أنا أتحدث عن الأخرى. تلك المخلوقة التي اسمها لاسال».

ـ ديزيريه غير مؤذية، يا آن ماري.

ـ إنها أفعى خبيثة بثياب امرأة.

فقال وهو يجاهد ليمنع نفسه من الابتسام: «حسناً، مع أن الأمر ليس من شأنك إلا أنني لا أخرج، ولا أنوي أن أخرج معها».

ـ لمَ لا؟

ـ لأنها ليست من النوع الذي يعجبني وهي تريد أكثر مما أنا مستعد لمنحه. والآن لدي سؤال أطرحه عليك. لما تهتمين بذلك؟

لم تكن تحسن الكذب، فقالت وقد احمر وجهها: «أنا لا أهتم».

ـ هل لهذا السبب أخرجتك من النادي، قبل أن تذبحيها؟

ـ أنا لم أحب تصرفها المتعالي.

ـ وأنا أيضاً لم أحب تلميحاتك منذ لحظات. ماذا تعنين بقولك إن أنجيليكا أكثر ظرفاً وأفضل تربية من أن تخرج معي؟

ازداد احمرار وجهها: «لم أقصد ما فهمته».

ـ إذن فقد عدنا إلى ذلك مرة أخرى. نقول شيئاً ونقصد شيئاً آخر؟

فنظرت إليه بارتباك: «إنه خطؤك. فأنت تجعلني أفعل وأقول أشياء لا أعنيها».

ـ أظن أنّ هذا يفسر تجاوبك الزائف حين عانقتك تلك الليلة.

فتحت فمها ذاهلة ثم هتفت ساخطة: «لكن عناقك أعجبني».

فقال: «أرجوك يا آن ماري. وفّري هذا الكلام لشخص غير خبير لا يعرف الفرق بين التمثيل والتصرف الحقيقي».

أسبلت أهدابها لتخفي ما قد يظهر في عينيها من تعبير، فيما احمر

وجهها وعنقها ما جعله يتساءل إلى أين سيصل الاحمرار: «وكيف عرفت؟».

كان هذا آخر ما توقعه منها. توقع الإنكار، نعم، البراءة الجريحة، نعم... لكن الاعتراف الصريح بالذنب؟ أبداً!

وأجاب هازاً كتفيه: «أن ما حدث في تلك اللحظة لم يجرفك تماماً؟ لا أدري. لعل السبب هو الطريقة التي تعلقت بها بي فيما عيناك متسعتان طوال الوقت ومليئتان بشيء غير المشاعر المدمرة. هل أتابع أم أنني أوضحت قصدي؟».

زمت شفتيها ثم غامرت بالنظر إليه من تحت أهدابها: «آسفة... أصوات الليل، حينذاك، جعلتني عاجزة عن التركيز».

ارتباكها، وليس كلماتها، هو ما جعله يفهم ما تعنيه حقاً: «هل تشيرين إلى ما يجري في الجناح المجاور؟».

شحب وجهها قليلاً، ثم عضت زاوية فمها: «أتعني أنك تعلم؟».

ـ أنا لست أعمى ولا غبياً، يا آن ماري. أدرك تماماً أن أخي يمضي معظم الوقت مع عروسه.

ـ أحقاً؟ وأنت لا تفعل شيئاً لتمنع ذلك؟

ـ إنهما راشدان راضيان. وما داما متحفظين فأنا لن أتدخل.

ـ لكنني ظننت أن هذا هو السبب في إصرارك على عدم السماح لسولانج بالإقامة في البيت الكبير... ظننت...

ـ ظننت أنني شخص مخيف مسيطر، مصدر سعادته الوحيد في الحياة هو جعل كل من حوله تعساء قدر الإمكان؟

ـ حسناً، أنت تحب فعلاً أن تسير الأمور بحسب مشيئتك!

ـ بالنسبة إلى ابني، نعم. فأنا لا أريده أن يتعرض لما قد يؤثر عليه سلباً. يكفيه ما عاناه من تصرفات أمه.

لم يلاحظ أنه يسير بسرعة إلى حد جعلها تكاد تركض لتجاريه في خطواته حتى أمسكت بذراعه وقالت: «تمهل يا إيثان أرجوك، ودعني أسترد

www.elromancia.com

أنفاسي لكي أعتذر. لقد أسأت الحكم عليك في مسائل عديدة وأنا آسفة حقاً».

ـ أحقاً آسفة؟

ـ نعم، وأنا أكره أن يتدخل بيننا أمور وأناس آخرون.

ـ هذا لا يهم ما دامت إقامتك هنا مؤقتة.

ـ بل يهم. كل شيء مهم في الحياة، يا إيثان. كل نملة تدوس عليها مصادفة وكل ورقة تسقط من زهرة، كل شيء وكل شخص... خصوصاً نحن.

ـ نحن؟ ماذا تعنين بذلك؟

ـ حسناً، سولانج أشبه بأخت لي. لهذا وبعد الزواج، سيكون بيننا أنا وأنت... نوع من القرابة.

ـ قرابة؟

احمر وجهها مرة أخرى، واكتسى بظل رقيق وردي. فتمتمت: «كفاك تحديقاً إليّ بهذا الشكل! إذا كانت كلمة (قرابة) مبالغاً فيها بنظرك، فما رأيك في كلمة (صديقان) بدلاً منها؟».

كانت امرأة من النوع الذي يحطم دفاعات الرجل. دافئة، متسامحة، سخية ومغرية إلى حد لعين. لو عرفها منذ سبع سنوات...!

لكن هذه الأفكار لم تفعل سوى إثارة رغبته في معانقتها مرة أخرى، وأغاظه ذلك إلى حد جعله يقول بجفاء: «أنا لست من النوع الذي يتخذ الأصدقاء بسهولة وعفوية، يا آن ماري».

ـ حسناً، على الأقل نحن نتكلم مع بعضنا البعض، مرة أخرى. ألا يُعدّ هذا تقدماً من نوع ما؟

ـ هذه بداية.

ـ وهذا يكفي.

ثم أضافت وهي ترفع إليه وجهها وتمنحه ابتسامة هددت بأن تبدد ما تبقّى لديه من تحفّظ: «حالياً على الأقل. حدّثني بالمزيد عن الجزيرة. ما هو

شعورك وأنت تدرك أن رفاهية السكان في يدك؟».

كانا قد غادرا منطقة السكان الأصليين، ووصلا إلى وسط المدينة حيث السوق يحيط بمرفأ صيد السمك. فقال: «لا يختلف الأمر عن أيّ وظيفة أخرى يكون فيها الرجل مسؤولاً عن مستخدميه».

قالت له آن ماري: «لا يختلف عن أي وظيفة أخرى؟ أنا أشك في ذلك؟».

ـ ربما أملك الأرض لكنني لا أملك السكان. ولا أستطيع إدارتها بكفاءة من دون تعاونهم معي.

ـ ألم تختبر قط الشعور بالخوف من الأماكن المغلقة وأنت تعيش على قطعة من الأرض صغيرة نسبياً، يعرف كل شخص فيها عملك؟

ـ كلا.

قال ذلك فيما أثار السؤال ذكريات أسوأ بكثير مما تستطيع أن تتصوّر: «لكن هناك من يشعر بذلك، وقد تجدين، إذا مكثت هنا مدة كافية، أنك واحدة من أولئك الناس».

ـ آه، لا أظن ذلك.

بسطت ذراعيها وأخذت تدور حول نفسها بسرعة فيما تنورتها تدور معها حول كاحليها: «أنا أعشق السماء والبحر. شعرت هنا بالحرية كما لم أعرفها في أي مكان آخر على الإطلاق».

ـ لكننا نعاني أيضاً من نقص حضاري. فما من أوبرا أو مسرح أو باليه أو فنادق فخمة أو منتجعات صحية.

ـ هذه الأمور نتركها لبقية العالم يا إيثان. في هذه الأيام وهذا العصر يمكننا أن نصل إليها بعد رحلة قصيرة فقط. ألست أنت من قال هذا الصباح إننا سنذهب للتسوّق في ميامي، إذا لم تصل مستلزمات ثوب الزفاف في الوقت المناسب؟ لكن هذا...!

وتسلقت جداراً حجرياً منخفضاً يفصل السوق عن الحديقة العامة خلف الشاطىء، ثم خلعت قبعتها ورمتها في الجوّ: «هذا هو الفردوس!».

صبي في حوالى الثامنة من العمر، أسمر البشرة أسود الشعر والعينين، ترك مباراة كرة القدم التي يشارك فيها ليلتقط قبعتها من حيث استقرت على العشب ثم ركض نحوها وقدّمها لها قائلاً بالفرنسية: «هذه لك يا آنسة».

قالت له وهي تقفز عن الجدار: «شكراً يا ملاك».

ثم انحنت حتى أصبحت عيناها على مستوى عينيه وهي ترد عليه بالفرنسية: «شكراً جزيلاً».

تعلقت عيناه بعينيها لحظة، ثم ابتسم لها ابتسامة عريضة وركض عائداً ليلتحق برفاقه.

تمتمت وهي تنتصب واقفة: «أليس جميلاً؟».

قال وقد شعر بطعنة ألم للطريقة التي تكلمت بها عن هذا الصبي: «إنهم جميعاً كذلك في هذه السن».

هل تكلمت يوماً امرأة بمثل هذا الحنان في صوتها مع أدريان؟ إنه لا يظن ذلك. ورغم أن جوزيفين كانت تحبه، إلاّ أنها لم تتعود المبالغة في إظهار عواطفها، وليزا... ليزا كانت توفّر ملاطفاتها للرجال خارج حياتها الزوجية.

تمتمت آن ماري: «تبدو حزيناً... لماذا؟»

- سيختبرون الخيانة سريعاً. لن يعود العالم مكاناً مثالياً رائعاً لهم، وستتبدد براءتهم فلا يستعيدونها أبداً.

أمسكت بيده قائلة: «ليس دائماً، يا إيثان! ثمة نهايات سعيدة أحياناً. وأرى أن هذه الجزيرة المحمية، الرائعة الجمال، توفّر الفرص لذلك أفضل من أي مكان آخر. فهنا الترابط الأسري والإحساس بالانتماء وهذا ما لا تجده في المدن الكبرى. إنه مكان رائع لصبي...».

- ومع ذلك ليس كافياً لبعض الناس.

- لم يكن كافياً لزوجتك الماضية وهذا عيب فيها وليس فيك.

- حاولي أن تقولي هذا لأدريان في المرة القادمة حين يرغب في أن يعلم لما ليس لديه أم تحضر حفلات المدرسة أو تضعه في سريره وتغطيه في الليل،

كرفاقه كلهم. حاولي أن تجيبي عن بعض الأسئلة الأخرى التي يسألها ما دمت هنا.

- حسناً، أنا لا أدّعي أنني خبيرة في الأولاد. لكن يبدو لي أن كل ما يمكنك أن تفعله هو أن تجيب بصدق بقدر الإمكان.

فضحك بمرارة: «أتظنين ذلك سهلاً؟ أخبريني إذن ما كان عليّ أن أجيب به ابني حين سألني لما كانت أمه تعانق رجلاً خلف كوخ بركة السباحة؟».

هتفت آن ماري مصعوقة: «هل فعلت ذلك؟ آه، يا إيثان. كم أنا آسفة! هل هو السنيور سانتوس؟ هل هذا هو سبب كرهك له إلى هذا الحد؟».

- لا، كان رجلاً من بين عدة رجال. عندما دخل سانتوس السجن، انتقلت إلى أحد المستخدمين في بيتي... شاب أشقر وسيم كان مسؤولاً عن صيانة برك السباحة. لقد غادرا الجزيرة معاً، لكن ليس قبل أن تتباهى بعلاقتها تلك أمام أدريان.

وسكت ليبتلع غضبه المرّ ثم أردف: «لقد اختلقت له بعض الأعذار حينذاك. لكن إذا كنت تظنين أنّ بإمكاني أن أصارحه الآن بالحقيقة، وبكل تفاصيلها الحقيرة...».

- لا، أنا لا أظن ذلك طبعاً. فهو أصغر من أن يفهم. كما أنّ هذه المعلومات أكثر مما يحتاج لمعرفته.

- ربما حالياً. لكن عليه أن يفهم في الوقت المناسب، على الأقل ليحمي نفسه فلا يكرر غلطتي عندما يصبح في سن الزواج.

- لماذا تفترض أنك الشخص الذي ارتكب الخطأ؟

- لأنني كنت أعرف أنها مجازفة، لكنني تزوجتها رغم ذلك.

- عندما يكون الشخص عاشقاً، لا يهتم بالمجازفات. من السهل أن نصبح حكيماً بعد حصول الأمر. إدراك الخطأ وإن جاء متأخراً أمر رائع.

- وكذلك الإدراك المسبق.

واستدارا ليعودا أدراجهما: «أتمنى لو أستطيع مجاراتك في إيمانك المؤثر بأن الحب يكتسح كل شيء يا آن ماري، لكن الحقيقة هي أنّ هذا غير صحيح. الحب ضعيف، وهو قصير العمر».

ـ أتعني أنك لا تؤمن بالزواج؟

ـ لا، بل أعني أنّ على الرجل أن يختار بحكمة. أنا لم أفعل ذلك، وما زال أدريان يدفع الثمن.

بقيت صامتة مدة طويلة جعلته يظن أن الحديث قد استهلك نفسه. لقد عاش وهو يلوم نفسه يومياً، أما أن يعيش التجربة من جديد مع هذه المرأة التي أثارت فيه مشاعر ورغبات من الأفضل أن تبقى خامدة، فلن ينتج عنه سوى إضافة المزيد من الفوضى إلى وضع فوضوي أصلاً. وهو ليس بحاجة إلى ذلك، ليس بحاجة إليها.

وعندما صعدا في السيارة، واتجها إلى البيت، شرعت تقول: «ولكن إذا كان لك أن تبدأ من جديد، فكيف ستتصرف؟»

فقال مندفعاً: «الجواب سهل. أختار امرأة تجري في عروقها دماء مدينة «بيلليفلير»... امرأة ولدت وعاشت على هذه الجزيرة... بدلاً من أن أختار امرأة غريبة».

* * *

٨ ـ حكمة السنوات

ما إن توقّفت السيارة في الفناء حتى جاء رئيس الخدم يستقبلهما والقلق بادٍ على وجهه: «الحمد لله على عودتك أخيراً إلى البيت يا سيدي. حصل حادث، مع الأسف، فقد وقعت السيدة جوزيفين قبل الغداء مباشرة».

ـ يا إلهي. لماذا لم تخبروني قبل الآن؟

دور جوزيفين الهام في الأسرة انعكس في السرعة البالغة التي قفز بها إيثان من السيارة بينما المحرك لا يزال يعمل، وفي تقطّع صوته خوفاً وهو يطرح سؤاله. مالت آن ماري إلى الأمام لتوقف المحرك، ثم أسرعت خلف الرجلين اللذين توجها إلى البيت. سمعت مورتون يقول: «حاولنا الاتصال بك في النادي، لكنك كنت قد خرجت يا سيدي، ولم نستطع الاتصال بك على هاتفك الخليوي».

ضرب إيثان جبهته بكفه: «نسيت أن أحمل ذلك الهاتف اللعين معي عند خروجي. هل عاينها الطبيب؟».

ـ نعم، يا سيدي.

ـ هل أمر بإدخالها المستشفى؟

ـ رفضت السيدة هذه الفكرة فرأى الدكتور إيڤيرت أن بإمكانها أن تتعافى في البيت. إنها مرتاحة الآن، وقد طلبت أن تراكما أنت والآنسة باركلي، حال عودتكما.

فقال إيثان عابساً: «سنصعد فوراً لرؤيتها».

www.elromancia.com

وأشار إلى آن ماري بأن تتبعه.

كان قد أخذ فرحتها بهذا النهار حين قال إنه لن يسلّم قلبه لامرأة من غير نساء الجزيرة، ولأنه يصدر لها الآن أوامر من دون كلمة رجاء مهذبة. رغبت في أن تذكّره بحزم بأنها ليست واحدة من خدمه أو أتباعه المتزلفين، ولكن حالة جوزيفين أسكتتها.

يقع جناح آل دكلوس في طرف المنزل، وهو فسيح وأنيق يتألف من غرفة جلوس وغرفة طعام صغيرة ومكتب. وتطلّ هذه الغرف كلها على مشهد أسطوري الجمال يمتد من التلة حتى البحر.

أشار لويس وهو يرتجف، إلى غرفة النوم المؤثثة باللونين الأزرق والعاجي. وكانت جوزيفين تجلس بين الوسائد المغطاة بالحرير وقد لفت كتفيها بوشاح من الحرير والدانتيل.

أشارت إلى زوجها بأن يتنحّى جانباً ثم ربتت على حافة السرير تدعو آن ماري للجلوس، وقالت: «ما كان هذا ما خططت له للأيام القادمة. لقد التوى كاحلي بشكل بالغ. أخشى أن يسبب لي ذلك إزعاجاً جدياً خاصة وأنّ الضيوف سيبدأون بالتوافد قريباً».

قال إيثان عابساً بعطف: «لا تهتمي بكل ذلك. سنجد حلاً ما. الأهم من ذلك هو كيف وقعت؟ أظنك كنت مستعجلة كعادتك فلم تنظري إلى موطىء قدميك».

ردّت بحدة: «لا تلمني. الذنب ذنب تلك القطيطة. منذ أحضرها أدريان وهي بين الأرجل».

استحال عبوسه ابتسامة واسعة: «أنت عجوز غير قابلة للإصلاح، يا عمتي، ولا أدري لما نبدد عطفنا عليك سدى. إذا كان هناك من يحتاج لمواساة، فهو تلك القطة على الأرجح».

فقالت بعنف: «القطة بألف خير، وأنت لديك مشاكل تواجهها أكبر من القلق عليها. أم لعلك نسيت أن مندوب «شركة التجارة الفرنسية» وحاشيته هم ضيوفنا على العشاء وسيبيتون الليلة هنا؟»

- تباً! لقد نسيت.

- هذا ما توقعته. حسناً، من حسن حظك أنّ بإمكان آن ماري أن تحلّ مكاني كمضيفة، وإلا لبقيت وحدك مع السيد بيلليتيه وزوجته النهمة.

فقالت آن ماري: «أنا؟ بالتأكيد لا. من المفترض أن تحلّ سولانج مكانك».

- اسمعي يا طفلتي! سولانج وفيليب مشغولان ببعضهما البعض بحيث لم يعد لديهما وقت لأي شيء آخر. لا، أنت الخيار الوحيد الممكن.

فقال إيثان: «أظن أنّ عمتي على حق، فسولانج غير مؤهلة لهذه المهمة هذه الأيام. إنها مشغولة جداً بمسائل العرس».

عندئذ ابتسمت جوزيفين ابتسامة نصر: «بالضبط. والآن، وبعد أن اتفقنا دع لويس يرافقك. أعتقد أن الطاهي يريد موافقتك على التغييرات التي أجراها على قائمة الطعام. لا يا عزيزتي، ليس أنت».

قالت جملتها الأخيرة لآن ماري حين رأتها تقف ثم أردفت: «إبقي معي قليلاً».

وقبل أن يخرج، وضع إيثان يده على كتف آن ماري في لمسة عابرة، لكنها وكالعادة أثارت في كيانها أحاسيس عميقة: «هل لك أن تأتي إلى البيت قبل العادة بنصف ساعة يا آن ماري، لنتمكّن من أن نستقبل الضيوف معاً؟»

- نعم.

وافقت ببهجة تفوق ما يحق لها أن تشعر به لقضائها السهرة بصحبته.

- ستكون سهرة طويلة مملة، مع الأسف. هل لديك ما ترتدينه؟ إذا لم يكن لديك فربما سولانج...

ردّت وعيناها مشتبكتان بعينيه بعنف:

- بل لديّ بعض الأثواب فلا تقلق يا إيثان. لن أسبب لك حرجاً.

- لم يسبق أن رأيتك إلاّ جميلة، لذا لم يخطر في بالي أنك قد تسببين لي أيّ حرج. فكرت فقط في شعورك عندما تجدين نفسك بحاجة إلى ملابس.

قالت وهي تزداد غرقاً في عمق عينيه الداكنتي الزرقة: «أقدر لك

www.elromancia.com

اهتمامك هذا».

كافأها بإحدى ابتساماته الفاتنة النادرة: «أراك لاحقاً، إذن».

نظرت إليه وهو يقبل وجنة عمته ثم يلحق بلويس خارجين من الغرفة. أغلقا الباب خلفهما فساد صمت لم يخترقه سوى صوت الساعة على المنضدة بجانب السرير.

وأخيراً، قالت جوزيفين بهدوء: «وجهك آية في الجمال، يا طفلتي. مشاعرك كلها مكتوبة عليه. وما أراه في هذه اللحظة هو اضطراب كلّي. فهل ابن أخي هو السبب؟».

فأجابت ببساطة: «نعم. إنه... مختلف عن كل من عرفت من الرجال».

- بمعنى آخر، أنت لا تفهمينه.

- أنا لا أفهم نفسي، يا سيدة دكلوس!

- هل لأنك منجذبة من دون أمل إلى رجل يحاول جهده أن يبقيك بعيدة عنه؟

- هذه حماقة، أليس كذلك؟

وحاولت أن تضحك فجاءت ضحكتها مبتورة بشكل محزن.

- كلا. في الحقيقة، يمسك الانجذاب بخناق الشخص وهذا ما يربك حواسه وإدراكه.

فهتفت آن ماري بذعر: «لكننا، أنا وإيثان، لم ننجرف وراء حواسنا».

- لكنكما فكرتما في الأمر.

فقالت آن ماري وهي تحترق خجلاً: «هل يبدو هذا واضحاً؟».

ضحكت جوزيفين برقة: «لا داعي للخجل. الإنجذاب الجسدي بالغ الأهمية في الحب بين الرجل والمرأة. هذا ما حصل بيني وبين لويس. هل أذهلك هذا الكلام؟».

- في الحقيقة، نعم. لكن ليس للسبب الذي تظنين. إنما لم أتوقع أن نتبادل أنا وأنت مثل هذا الحديث الصريح.

- نحن امرأتان يا آن ماري، والبوح بما في القلب هو جزء من طبيعتنا.

وضحكت مرة أخرى بشيء من الدعابة ثم قالت: «الرجال يخافون هذا، طبعاً. فهم يخشون فضح أسرارهم».

فقالت آن ماري وقد زاد فضولها: «هل هذا ما نفعله الآن؟ نفضح أسرارهم؟».

- ربما.

- سيغضب إيثان لو عرف.

- لن يعرف هذا مني. إيثان ماهر جداً في تنظيم حياة الآخرين، لكنه يواجه خطر إفساد حياته الخاصة. ولهذا السبب أحدّثك بهذه الصراحة. فقد تكونين المرأة التي يمكنها تغيير حياته.

- في هذه المرحلة، لا أظن أن بيننا أي علاقة.

- حسناً، احتمال حصول ذلك وارد بكل تأكيد. فأنا لست عمياء ولا غبية، كما أفهم ما أراه. لا يمكنك أن تفكري بشكل صحيح وهو بجانبك، وهو يملأ عقلك وقلبك وروحك. أنت ترغبين فيه بقدر ما تخافينه، لأنه قد يقلب عالمك رأساً على عقب. لكن إيثان سيهرب ويسلك الطريق المعاكس إذا ما علم أنك منجذبة إليه لأنه وسيم وحسب.

فقالت آن ماري محتجة: «الأمر يتعدّى ذلك. لكنه رجل معقد. والتغلب على الحواجز التي يضعها ليس سهلاً».

- إذا استطعت أن تفهمي ما الذي جعل منه الرجل الذي هو عليه اليوم، فقد تجدين أن الأمر يستحق العناء. إنه يعتقد أنّ النساء لا يميّزن بين الحب والافتتان... وأنهن يفضلن المال والمركز والمظاهر على الإخلاص والكرامة والحب... الحب ليس له وحسب بل لأسرته ولأهل جزيرته أيضاً.

- بمعنى آخر، كل ما كان ينقص في زوجته السابقة.

- بالضبط. وعندما تدركين ذلك تصبح خياراتك واضحة. لن يغامر أبداً ويعرّض سعادته وسعادة أدريان للخطر بالوقوع في غرامك إلا إذا

استطعت أن تقنعه بأنك قادرة على الوفاء بعهودك مثله تماماً.

ـ أمر كهذا يستغرق وقتاً طويلاً، أطول مما أستطيع تقديمه. فبعد الزواج سأرحل من هنا.

ـ استفيدي إذن قدر الإمكان من كل دقيقة بقيت لك.

ـ ولكن كيف يمكن للشخص أن يميّز بين الافتتان والحب الحقيقي في مثل هذا الوقت القصير؟

ـ يا إلهي يا طفلتي. أنا لا أملك الأجوبة كلها! أنا أعرف فقط ما أراه، وأفسّر ذلك بحكمة سنوات عمري. ربما ما يجري بينكما لن يرتقي إلى أعلى من مجرد الانجذاب السطحي، وهذا لن يكشفه سوى الوقت. على أي حال، إذا كنت صادقة حقاً في رغبتك في القيام برحلة الاستكشاف فقومي بها. ابدئي بأن تثبتي له أنك لست ذلك الشخص الذي يسهل نبذه، وتجرئي على أن تكشفي له عما في قلبك.

لكن هل لديها مثل هذه الجرأة؟

أزعج هذا السؤال آن ماري بقية عصر ذلك اليوم وأثناء ارتدائها ملابس العشاء.

* * *

حلّ منتصف الليل ومع ذلك كان الجو خانقاً ثقيلاً وكأن الشمس لا تزال تلقي بأشعتها الحارقة على الحدائق.

وبعد أن استبدلت آن ماري ثوبها الكحلي الأنيق بعباءة قصيرة منقوشة بأزهار قرمزية، تسللت خارجة من مسكنها بهدوء، ثم توجهت إلى مكانها المفضّل.

كانت الدرجات المؤدية إلى الشاطىء واضحة في ضوء القمر. وعندما وصلت أخيراً إلى الشاطىء وخلعت حذاءها، تغلغلت الرمال بين أصابعها وكأنها دقيق ساخن.

كانت السهرة ناجحة منذ اللحظة التي وضعت فيها قدمها في المنزل

الكبير ووجدت إيثان بانتظارها. لم ينطق بأيّ كلمة وهو يتقدم إليها ليحييها، لكن هذا غير مهم. فاليد القوية الحارقة المتملكة تقريباً التي وضعها على ظهرها وهو يقودها إلى الصالون، والاستحسان الصامت في عينيه وهو ينظر إليها، كانا كافيين.

لكنه لم يعد كافياً الآن. لعل ما يريده أيّ شخص آخر هو الجلوس إلى مائدة عامرة بالأطايب وتبادل الأحاديث ثم الاستلقاء في سرير مريح. أما هي فقد تملكها إحساس بالقلق وكأنها تركت خلفها عملاً غير منتهٍ...

لعل هذا هو السبب في تخليها عن حذرها المعتاد ومغامرتها بالنزول إلى البحر.

جلست مطاطئة الرأس تحرّك يديها في الماء ما سبب ومضات فسفورية.

أخذت تفكر في أن هذا سحر... كالسحر الذي يفترض أن تكون عليه هذه الليلة. ودفعتها هذه البهجة الآنية إلى رفع عباءتها والتقدم أكثر في المياه.

أواه، يا إيثان...!

تمتمت باسمه بصوت خافت مليء بالشوق لم يسمعه سواها.

أو هذا ما ظنته. ولكن ما إن أفلتت هذه الكلمات من بين شفتيها حتى فوجئت بما جمّد الدم في عروقها إذ تخللت يد شعرها، وأمسكت برقبتها. أطلقت صرخة رعب مخنوقة واستدارت فإذا بها تجده خلفها، والأمواج تداعب السروال القصير الذي يلبسه.

كان يقول معنّفاً: «بالنسبة إلى شخص يدّعي أنه يخاف من أي شيء أعمق من كأس الماء، أراك تغامرين في الماء في مثل هذا الوقت من الليل. ثمة أخطار، وليست كلها ناتجة عن المد والجزر».

ـ أتعني أني قد أتعرّض للسلب والنهب؟

وضغطت بقبضتها على قلبها محاولة أن تسكت خفقاته المتسارعة، ثم استطاعت أن تضحك وتضيف: «أشك في ذلك. ليس لديّ ما يستحق السرقة».

كانت عيناه غامضتين في الظلام، وتعابير وجهه غير مقروءة. لكن

www.elromancia.com

لمسته، وهو يمرّر أصابعه على وجنتها، كهربتها. قال بصوت عميق غامض: «أنا لا أوافقك الرأي. أنت تملكين ما يشتهيه كل رجل عاقل».

تمتمت بصوت مرتعش: «أنا؟».

قال وهو يقودها عائداً بها إلى الشاطىء: «لقد أدهشتني الليلة. كنت أعلم أنك تتكلمين الفرنسية، لكني لم أتصور أنك تتكلمينها بتلك الطلاقة. لم يكن لديّ فكرة عن اطلاعك على ما يحدث في هذه الجزر بشكل عام و «بيلليفلير» بشكل خاص. حتى أن بيلليتييه افتتن بك».

وتشوّقت أن تسأله إذا ما افتتن بها هو أيضاً؟ وهل تراها أساءت تفسير الدفء الذي لاحظته في نظراته على العشاء؟ وهل من سبب يجعله يكثر النظر إليها بذلك الشكل؟

قالت: «زوجته ساحرة أيضاً لكنها هادئة جداً».

تردد صدى ضحكة إيشان على الماء: «زوجته تحب لفت انتباه الآخرين... انتباه زوجها وأيّ رجل آخر في الغرفة، لكنها لم توفّق الليلة. لقد سرقت الأضواء منها. لما لم تقولي لي كم أنت بارعة ومصقولة الشخصية؟».

ـ لماذا لم تسأل بدلاً من أن تفترض أنني سأكون مصدر إحراج لك؟

ـ أنا لم أقل هذا، يا آن ماري.

ـ ربما لا، لكن بإمكاني أن أقرأ ما يدور في ذهنك.

ـ أحقاً؟ في هذه الحالة لا ينبغي لهذا أن يشكّل مفاجأة لك.

وفجأة، وفي لحظة غير متوقّعة عانقها عناقاً عنيفاً جعل حواسها تغيم.

قال بخشونة ويداه تضمانها إليه أكثر: «أردت أن أفعل هذا طوال السهرة».

تشبثت بذراعيه وقد أصابها دوار. كيف يمكن للمسة بسيطة منه أن تثير فيها مشاعر لا يحدها حد؟ بأي قدرة عرف كيف يصل إلى روحها؟

ـ منذ اللحظة التي ظهرت فيها على الشرفة في ذلك العشاء الممل الذي لم يشأ أن ينتهي وأثناء كل ذلك الحديث المهذب، الأمر الوحيد الذي أردته هو

أن أنفرد بك لأضمك بين ذراعي.

وصمت للحظة ثم أضاف بصوت أبح: «والحمد لله أني وجدتك هنا، فما كان النوم ليداعب جفني لو لم أرك».

تملكتها البهجة وسرت أحاسيس جارفة في جسدها، وهمست: «لم أتكهن شعورك. فقد بدوت منضبطاً للغاية».

وتحرّك فانعكس ضوء القمر عليه فبدت بشرته البرونزية بلون الفضة. وتذكرت ما قالته جوزيفين عنه. إنه وسيم للغاية!

أخذ يدها ووضعها على قلبه: «هل هذا قلب رجل منضبط؟»

أصبحت أنفاسها لاهثة، وشعرت بالقوة تنسل من ساقيها، وبركبتيها تصطكان.

استندت إليه فضمها إليه أكثر. كانت يداه دافئتين متملكتين، فيما راح يترنم باسمها فجعله يبدو كغناء الملائكة.

أخذت تلمس قسمات وجهه لتتأكد من أنها لا تحلم، وأنه حقيقة أمامها.

تركها تتلمسه قبل أن يتراجع مبتعداً سامحاً للنسيم بأن يتغلغل بينهما.

خشيت أن يبتعد عنها ليختبىء مرة أخرى خلف قناع التحفظ البارد، لكن هذا لم يحدث، بل أخذها مجدداً بين ذراعيه يضغطها إلى صدرها. تملكها الأمل في أنه اختبر عاصفة المشاعر نفسها التي عاشتها هي. هل هذا ممكن؟

وأخيراً، أبعدها عنه قليلاً ورفع رأسها بيده قبل أن يسأل: «حسناً؟ ما هو شعورك؟ هل أنت نادمة؟»

ـ آه، يا إيشان. إياك أن تشك لحظة واحدة في روعة هذا العناق!

ـ نعم.

قالها بالفرنسية وهو يتأملها برقة وحنان: «لأول مرة نتفق في الرأي. من المؤسف أننا لا نستطيع أن نمضي بقية هذه الليلة سوية على الشاطىء، إذ أود رؤية الشمس وهي تبزغ وأنا معك لكن ابني...».

ـ أتفهم ذلك. عليك أن تكون موجوداً عندما يستيقظ أدريان في الصباح.

ـ نعم.

ومرّ بإصبعه على عنقها، غير واعٍ لفيض المشاعر التي أثارها عناقه العفوي فيها: «كما أنّ عليك أن تذهبي أنت أيضاً، لأنني عنيت ما قلته من قبل، وهو أن التسكع وحدك في مثل هذا المكان المعزول ليس فكرة ذكية».

ـ لكنني أحب هذا المكان. أحب أن أتأمل النجوم. أعشق سكون الجزيرة وهدهدة صوت الأمواج الخافت لها.

ـ هذا شاعري بكل تأكيد، لكن لا تنخدعي به، فقد يتحول البحر إلى غول من دون إنذار. ومن سيسمع صراخك طلباً للنجدة ويأتي لإنقاذك إذا صادفت أيّ متاعب؟

فقالت وهي تستند إليه: «إذا ما تعلمت شيئاً منذ قدومي إلى هنا، فهو أنك موجود دوماً عند الحاجة إليك».

ـ ليس دائماً، فأنا بشر ومعرض للخطأ كأي رجل آخر. يمكنك الاعتماد عليّ بقدر ذلك فقط.

كان قوله أقرب إلى التحذير، وكأنه يطالبها بألاّ تفسر ما حصل بينهما بأكثر مما يحتمل.

قالت بمرح: «سأكون أكثر حذراً إذن. ولن آتي إلى هنا ليلاً إلا إذا علمت أنني لن أكون وحدي».

ابتسم ثم قال وهو يمدّ يده إليها: «يا لهذا الإغراء! تعالي، سأرافقك إلى البيت».

ـ لا.

هزت رأسها وهي تدرك أنها إذا دفعته إلى مزيد من التقارب قبل أن يكون مستعداً لذلك فسينجم عن ذلك الندم الذي تحدث عنه، ندمه هو: «يمكنني أن أذهب وحدي. لقد اعتدت السير في الطريق الصخري وأنا أعرفه جيداً».

ـ لكني أعرف طريقاً آخر أسرع وأكثر أمناً.

وأشار إلى بقعة يلتقي فيها دغل كثيف بالرمال، فرأت حصاناً يرعى. كان مخلوقاً رشيقاً يبدو كالشبح من بعيد. إذن، هكذا استطاع إيثان أن يتسلل ويصل إليها بهذه السهولة!

قال لها بخفة: «تعالي. من هذه الطريق، يمكننا أن نطيل بهجة هذه الليلة قليلاً».

رفضها لاقتراحه يفوق طاقتها؛ لذا، حين صعد على صهوة الحصان ثم مدّ يده إليها ليساعدها على الصعود خلفه لم تتردد: «تمسّكي بي جيداً».

وكأنها بحاجة إلى تشجيع! انطلق بهما الحصان، مثيراً عاصفة من الغبار.

عرفت أنّ ذكرى هذه الليلة ستبقى دوماً في نفسها ولن تغيّبها السنين حتى لو عاشت مئة سنة.

لكن كل ذلك انتهى بسرعة. فبعد أن اجتازا آخر منحدر، أوقف إيثان الحصان أمام مسكن الضيوف ثم نزل عنه وهو يتمتم بالفرنسية: «إلى الغد، يا عزيزتي. نوماً هنيئاً».

وانزلقت عن ظهر الحصان إلى ذراعيه المفتوحتين.

نعم، ستنام! وفي أحلامها ستختزن كل لمسة وكل كلمة تبادلاها.

قالت بصوت خافت: «نعم. إلى الغد».

ورفعت وجهها تطبع ملامحه في ذهنها بعد أن شغلت قلبها.

* * *

٩ ـ معركة خفية

رأت إيثان في اليوم التالي، إنما من بعيد فقط. بدا مستعجلاً ومشغولاً جداً فلم ينتبه لها. ولم تحاول هي لفت انتباهه، رافضة أن تسمح للشعور بالخذلان بأن يتملكها. . . ومن هي المرأة التي ترغب في أن تدرك أنها نُسيت بهذه السرعة؟ وهكذا، عادت إلى عملها محدّثة نفسها بأن تتوقف عن التصرف كفتاة مراهقة تعاني من حب شاب مغرور.

لكن عصر ذلك اليوم، عندما ذهبت إلى المنزل الرئيسي لتزور جوزيفين، وعلمت أنه سافر مع ابنه إلى ميامي ليمضيا هناك ليلة أو أكثر، لم تكن خيبة أملها سهلة الاحتمال.

ـ ألم يخبرك أنهم استدعوه إلى هناك؟

طرحت عليها جوزيفين هذا السؤال وهي تنظر إلى آن ماري بعينيها النافذتين البالغتي الفطنة.

ـ ولمَ يخبرني؟ ليس بحاجة إلى إذن مني ليذهب حيثما يريد.

ونظرت آن ماري إلى السماء مدّعية عدم الاكتراث. ماذا يمكنها أن تفعل لتحدث أثراً دائماً في نفس هذا الرجل؟

في الثماني والأربعين ساعة التالية، تخلّت عن كرامتها المجروحة، وأرهقت نفسها بالعمل علّها تنهي خياطة الثياب. لكنها ورغم ذلك لم تستطع أن تسكت الأسئلة التي رفضت أن تبارح ذهنها. لما لم يخبرها إيثان أنه سيسافر؟ أتراه يتجنبها عمداً؟

ما زاد الطين بلّة ارتفاع الحرارة الذي استنزف طاقتها وطبيعتها المشرقة والمرحة. قالت لها سولانج في نهاية اليوم الثاني: «أصبحت حادة الطبع للغاية».

فردّت عليها بحدة: «كنت أنت أيضاً لتصبحي كذلك إذا بقيت مقيدة إلى آلة الخياطة خمس عشرة ساعة في النهار وفي طقس كهذا».

فأجفلت سولانج: «آه، أنت تجهدين نفسك في العمل، وهذا ذنبي أنا. ما كان عليّ أن أثقل عليك بهذا الشكل».

خجلت آن ماري من نفسها لعلمها بمدى حساسية صديقتها، وتنفست بعمق ثم قالت تعتذر: «إنه ذنبي أنا يا سولانج. وما كان لي أن أنفّس عن شعوري بالإحباط عليك أنت».

وكان هذا صحيحاً. إنها في الثامنة والعشرين من عمرها، وقد أمضت هنا فترة تكفي لكي تعلم أن ما حصل تلك الليلة لا يلزم إيثان بشيء.

وفي ذلك المساء، تزاحمت السحب قادمة من الشرق، مظلمة متوعدة. وخوفاً من أن يدركهما المطر، تناولت هي وسولانج العشاء باكراً في مسكنهما. كان البرق يشق كبد السماء فيما صوت الرعد يتعالى بين التلال، والرياح العاصفة تهز أغصان الأشجار. وبعد وقت قصير، انطفأت الأنوار.

قالت سولانج وهي تضيء الشموع: «تنقطع الكهرباء دوماً أثناء العواصف. وهذا هو عيب الإقامة هنا، لكن ضوء الشموع شاعري للغاية، ألا تظنين ذلك؟».

قالت آن ماري وهي تتوجه إلى غرفتها: «ربما بالنسبة إليك».

استيقظت في الصباح التالي لتجد السماء ساكنة والبحر هادئاً ورائحة الأزهار التي غسلها المطر تعبق في الجوّ.

شعرت بالانتعاش لانتهاء العاصفة كما صفا ذهنها كصفاء الجو، فعلّقت الأثواب التي انتهت من خياطتها، ثم رافقت الخادم الذي حملها إلى البيت الكبير حيث اطمأنت إلى أنها مرتبة في غرفة الملابس لتعود بعدئذ إلى الردهة حيث وجدت إيثان ينتظرها عند أسفل السلم.

قال وعيناه تتأملانها وهي تتوجه إلى الطابق الرئيسي: «سمعت أنك كنت مشغولة».

ـ سمعت أنك كنت مسافراً.

وكادت تصفع نفسها لأنها بدت فضولية.

فلوى شفتيه: «هل افتقدتنا يا آن ماري؟».

ردّت بازدراء: «افتقدت أدريان، أما أنت فلم أكد ألحظ غيابك».

التواء شفتيه تحوّل إلى ابتسامة عريضة: «ونحن أيضاً افتقدناك».

قالت متمسكة بغيظها كدفاع وحيد ضد سحره القاتل: «هذا مؤكد، والفيلة تطير في بيلليفلير».

ضغط شفتيه ليكتم ضحكته، إنما عبثاً: «ما من فيلة في «بيلليفلير»، يا عزيزتي. لدينا أغنام وجياد وبقر فقط. حسناً، ثمة صبي صغير يتعلم الإبحار وهو متلهف لكي تصفقي لنجاحه».

وأمسك بيدها يساعدها على نزول الدرجتين الأخيرتين: «الآن، وبعد أن أنهيت ثياب العرس، لم يعد لديك سبب للرفض».

وعلى الفور ضعفت عزيمتها وتمتمت: «أظن ذلك».

ـ رائع! ربما تودّين أن تتعلمي الإبحار في زورق صغير؟

قالت وقد وهنت ركبتاها للدفء في عينيه وهو ينظر إليها: «أنا لست مستعدة للذهاب إلى هذا الحد. لكنني متلهفة لرؤية أدريان يفعل ذلك».

* * *

قصدا شاطئاً لم تزره من قبل. وبعد أن لبس أدريان سترة النجاة أنزل إيثان مركباً شراعياً إلى الماء.

سألها إيثان وولده يركض خلفه ثم يصعد إلى قمرة القيادة: «هل أنت واثقة من أنك لا تريدين مرافقتنا؟ ثمة مكان لثلاثة أشخاص، وآخر لعامل الإنقاذ. ونحن لن نبحر أكثر من مئتي ياردة».

قالت وقد شعرت بقشعريرة باردة رغم دفء الجو، لفكرة أن تصعد في

مثل هذا المركب الصغير: «بالتأكيد».

ـ لن أدعك تغرقين. أعدك بذلك. أنت مهمة جداً بالنسبة لسولانج ولن أغامر بسلامتك.

فقالت ساخرة: «لسولانج فقط؟».

ـ ليس فقط لسولانج، بل لي ولابني.

إنها كلمات عاشت لتسمعها، ومع ذلك لم تستطع إقناعها بالصعود إلى ذلك المركب الصغير.

وهكذا، رفعت الكاميرا المعلقة في عنقها وقالت: «إذهب وأعطِ ابنك درسه في الإبحار، فيما ألعب أنا دور المصور الرسمي».

ومرت الأيام الباقية على هذا المنوال، ترافقهما حين يذهبان للإبحار أو للسباحة قرب الشاطىء. وبغباء وعن طيب خاطر تركت نفسها تصل إلى لعب دور الأم فتتأكد من أن أدريان مسح بشرته بالكريم الواقي من الشمس، واعتمر قبعة.

الليالي التي مرت كانت مختلفة، حيث اعتادا أن يمضيا هي وإيثان ساعات طويلة لا يلهيهما فيها أي شيء عن بعضهما البعض.

كانت تشعر برفقته بسعادة لم تعهدها من قبل، فقربه منها يفقدها إحساسها بالعالم وتعيش فقط لبهجة الساعات التي يتشاركانها.

أن تعانقه، أن تتحدث إليه أو حتى أن تجلس بقربه صامتة يتأملان معجزة الخالق التي تتجلى في جمال الجزيرة وبحرها ورمالها الساخنة وقمرها المكتمل، هذا أصبح علة وجودها في تلك الليالي المرصعة بالنجوم.

لكن إيثان كان يحتفظ دوماً بجزء من نفسه منيعاً. فهو لم يتوسل إليها قط لكي تبقى في الجزيرة. كما لم ينسَ نفسه لحظة فيعترف لها بأنه يحبها.

كل ما يهمها الآن هو اليوم الذي تعيشه، فقد لا يأتي الغد أبداً.

لكن الغد جاء وبشكل مفاجىء بحيث لم تكن مستعدة له.

قال لها وهو يدخل المركب إلى مرساه يوم السبت قبل العرس: «آسف لأنها المرة الأخيرة التي نتمكن فيها من قضاء العصر في التسكع بهذا الشكل.

www.elromancia.com

سيبدأ الضيوف الغرباء عن الجزيرة في الوصول غداً وهذا يعني أن وقتي لن يعود ملكي حتى يوم العرس. وكذلك وقتك لأن عمتي ما زالت لا تستطيع الوقوف والسير بشكل جيد...».

ورغم أن السماء الزرقاء خالية تماماً من الغيوم، إلاّ أن البحر بدا فجأة أقل زرقة والشمس أقل تألقاً. فقالت غير قادرة على إخفاء ذعرها: «ولما بهذه السرعة؟ فالعرس بعد أسبوع».

ـ هذا صحيح. ومعظم الضيوف لن يصلوا إلاّ قبل يوم أو يومين منه. ولكن الأصدقاء الحميمين الذين سيأتون من كافة أنحاء العالم، سيستغلون هذه الفرصة ليزوروا الجزيرة قبل العرس. سيصبح بيتنا نهار الإثنين مليئاً بهم وسيزداد عددهم يوماً بعد يوم.

ـ لعلك تتمنى لو أنني لم أحتفظ بمسكن الضيوف كله لنفسي.

قالت هذا راجية أن يندفع لطمأنتها بأنه يريدها أن تبقى مكانها. لكنه، وبدلاً من ذلك، أجاب: «نظراً لكل المساعدة التي قدمتها، يحق لك أن تتمتعي ببعض الراحة. نحن جميعاً شاكرون لك، يا آن ماري».

شاكرون! فوجئت بهذه الكلمة التي آلمتها أكثر من خنجر ينغرز بين أضلعها ويمزق قلبها. فصرخت كارهة حدة صوتها التي عجزت عن السيطرة عليه: «هل هذا سبب تصرفاتك في الأيام الأخيرة، يا إيثان؟ التعبير عن شكرك؟»

ـ طبعاً، فقد كنت رائعة. تتدخلين عندما نحتاج إليك. ماذا كنت تتوقعين غير ذلك...؟ أننا سنعتبرك أمراً مسلّماً به؟

فقالت بفتور: «لا».

ـ لكنك مستاءة.

ـ كلمة (مستاءة) لا تعبّر عما أشعر به. ولكن ما أمهر الرجل في التقليل من أهمية الأمور!

ـ وما أمهر المرأة في تعظيم ملاحظات عديمة الأهمية!

وألقى نظرة ذات معنى على أدريان الذي لم يكن يفهم جوهر الحديث إلا

أنه أحسّ بالتوتر الذي يصاحبه.

شعرت بالندم حين رأت الاضطراب والخوف في عيني الصبي، فقالت: «أنت على صواب ولا أدري ما الذي تملكني لأبالغ في تصرفي بهذا الشكل. كل ما أستطيع قوله هو إني متشوقة منذ شهور لرؤية سولانج وفيليب متزوجين. الآن وقد أوشكا على ذلك أشعر تقريباً بالأسف».

ـ لماذا؟ هل غيرت رأيك بالنسبة إلى إمكانية نجاح الزواج؟

ـ لا. لكنني، إذا أردت الحقيقة، أودّ لو تبقى الأمور على ما كانت عليه منذ فترة قصيرة.

كادت جرأتها تدفعها إلى الاعتراف بصراحة بكل ما في قلبها، لكنها لم تلق تجاوباً من إيثان الذي قال وهو يحوّل عينيه عنها: «ما من شيء يدوم إلى الأبد يا آن ماري. ونحن نعلم ذلك منذ البداية».

* * *

ولإثبات كلامه، تعرّضت الحياة التي عاشتها في قرية آل بومونت لتغيير جذري من تلك اللحظة. فمع ازدياد الضيوف، أصبحت وجبات الغداء أكثر رسمية ووجبات العشاء أكثر فخامة.

وعندما أخذ إيثان يحثها على مشاركة الضيوف مرحهم قالت: «شكراً، لكنني أظن أن أدريان يشعر بأنه مهمل. لذا، وإذا لم يكن لديك أيّ مانع، أفضّل أن أمضي بعض الوقت معه بدلاً من ذلك».

فقال: «إنها مراعاة بالغة منك لأحاسيس الآخرين».

وتركها لتفكر بمرارة بأن هذا كل ما هي عليه بالنسبة إليه. فهي تراعي مشاعر الآخرين وتساعدهم وهي غبية بما يكفي لتقع في غرام رجل لا يهتم مثقال ذرة في إضافة عضو آخر إلى أسرته.

ولتلهي نفسها، عادت إلى العمل. وقد سرّها أن تلبي طلب أدريان بأن تخيط له بذلة خاصة ليلبسها في العرس: «لأنني سأحمل المحبسين، وهذا شيء هام».

- إذن ماذا تريد أن تلبس؟

- بذلة رجل فضاء فضية اللون ومع خوذة.

- لا بأس، سنرى ما يمكننا أن نفعله.

وبعد ربع ساعة، قدمت له ثلاثة تصاميم ليختار منها، فأشار إلى واحد منها.

قالت وهي تحتضنه: «هذا ما أعجبني أنا أيضاً».

وفي الصباح التالي ذهبا إلى متجر صغير حيث اختارا قماشاً أبيض تمتزج فيه خيوط الكتان مع الحرير ما جعله أشبه بلون الفضة.

كان سعيداً جداً. يأتي إلى مسكنها كل صباح فيقف بصبر فيما هي تقيس له البذلة.

- ستكون أكثر الرجال الموجودين في العرس أناقة.

وأضافت وهي تزين له الياقة بقماش فيروزي من بقايا ثياب وصيفات العروس: «كل سيدة في حفل الاستقبال سترغب في الرقص معك».

فقال: «لكنني سأرقص معك فقط. أنت السيدة المفضلة لديّ في العالم كله. أنا أحبك يا آن ماري».

- آه، يا حبيبي!

تنهدت وقد انفطر قلبها من أجله، وبسبب تعلّقه بها، هي الغريبة، بينما من المفترض أن يخصّ أمه بحبه هذا: «وأنا أيضاً أحبك».

لا بد أن شيئاً من تعاستها ظهر في صوتها لأنه قال لها بحكمة بعد أن نظر إليها بعينيه السوداوين الكبيرتين: «أحياناً يكون الحب مخيفاً، أليس كذلك؟ من الأفضل أحياناً ألاّ يحب الإنسان شخصاً آخر وبهذا لا يحزن إذا لم يبادله ذاك الشخص الحب. لكن الإنسان لا يمكنه دوماً أن يتحكم بأحاسيسه، أليس كذلك؟».

أجفلت آن ماري لكلامه هذا... أن يتعلم صبي في مثل سنه مثل هذا الدرس المؤلم هو إجرام حقاً!

لو عاد الخيار لها لبقيت معه في بيت الضيوف وابتعدت عن البيت

الكبير كلياً، ولخصصت كل ثانية من وقتها على هذه الجزيرة الساحرة لكي تغمره بحبها وحنانها. لكن الخيار لم يكن بيدها في هذه المسألة أيضاً.

قالت لها جوزيفين ذات يوم حين عرّجت على البيت الكبير لترى سولانج: «أنت بحاجة إلى التحدث مع الكبار بين الحين والآخر، كما أن إيثان ما زال بحاجة إلى مضيفة. يمكنني أن أساعد في فترة الغداء، لكنني أكبر سناً من أن أبقى مستيقظة حتى منتصف الليل لأبتسم لأناس لا أتذكر أسماءهم، وأضحك لنكات لا أفهمها. عليك أن تحلّي مكاني يا طفلتي».

وافقت آن ماري طبعاً، لكن كان من الصعب عليها أن تحافظ على مظهر هادىء فيما الحرارة تكتسحها كلما نظر إيثان إليها، وكلما نظرت هي إليه. إنّ قربها منه من دون أن تتمكّن من لمسه يجعلها تذوب شوقاً. كما لاحظت أنّ التملك الذي يقارب الغيرة يظهر في نظرات إيثان حين يُظهر أحد الضيوف من الرجال اهتماماً زائداً بها.

هل من المقدر لبقية وقتها في «بيلليفلير» أن يمضي بهذا الشكل؟ فتترنح هي على شفير اليأس، فيما تتراوح مشاعره هو ما بين عدم الاكتراث وإظهار التملك بشكل مبطّن؟

وفي يوم الخميس الذي سبق العرس، جاءها الجواب. استأذنت بعد العشاء مباشرة متعللة بالإرهاق. وكانت تجتاز باب الصالون عندما صادفت إيثان الذي تمتم يقول: «سأزورك في ما بعد».

تبخر إرهاقها في لحظة لتحل محله بهجة لم تعرف معها كيف بقيت قدماها ثابتتين على الأرض.

وأسرعت إلى مسكنها بخطى خفيفة وبقدمين تكادان لا تطآن الأرض.

إنه يهتم بها، ربما قليلاً جداً! ولكن القليل هو أفضل من لا شيء.

وبخفة ونشاط، اغتسلت على مهل عالمة أن السهرة في البيت الكبير لن تنتهي قريباً، وأن لديها وقتاً كافياً لتزيّن نفسها من أجله. ارتدت ثوباً ناعماً بلون ضياء القمر. وجلست على حافة سريرها وأخذت تنتظره.

أخيراً، وعندما انقطعت أصوات الموسيقى والضحكات، وساد

السكون في الأنحاء، خرج إيثان من بين الظلال.

فتحت له الباب فمدّ يديه إليها بانفعال ومشاعر حادة مكبوتة.

- يا إلهي، ما الذي فعلته بي يا امرأة لأصبح مسحوراً بهذا الشكل؟

تشبثت به، ثم دفنت وجهها في عنقه وهمست: «أحبك، يا إيثان، أحبك».

وللحظة، جمد مكانه وقد اتسعت عيناه ذهولاً. ثم صدرت عنه آهة معذبة وابتعد عنها.

ما جرى شكّل صدمة للإثنين معاً. وأخيراً، وعندما اتضحت معالم العالم الخارجي مجدداً، أدركت الحقيقة المفزعة لما قالته.

الصمت الذي تلا كان مثقلاً بحيرة لا تُحتمل، فبحثت بلهفة عن كلمات تعبر بها عن شيء معقول وحاسم... عن شيء يصلح الدمار الذي أحدثه اعترافها المتهوّر.

لم يخطر في بالها شيء. لشدة لهفتها وذعرها لإصلاح الأمر، تمتمت متلعثمة: «أتراني دمّرت كل شيء، يا إيثان؟».

انهار على الأريكة ثم أخذ يمشط شعره بأصابعه: «لقد فاجأتني».

- وأنا أيضاً تفاجأت. لم أشأ أن... أقول ما قلته.

- أعرف هذا. ولهذا السبب علينا أن نرجىء البحث في ذلك.

وهزّ رأسه وكأنه يريد أن يخليه من أفكار لم يشأ أن تشغله.

شعرت بالتعاسة بقدر ما كانت سعيدة منذ دقائق، وأخذت تنظر إليه بصمت. وعندما وقف واتجه نحو الباب قال بلطف: «لا تبدي مصدومة بهذا الشكل، يا آن ماري. أعرف جيداً أنك قلت كلامك ذاك، في غمرة من الانفعال. وسأستيقظ في الصباح وأنا أتساءل بعجب عما دفعك إلى ذلك».

* * *

١٠ - حطام سفينة

- في الواقع، أصدقاؤك يعرفون كيف يقيمون حفلة.

هذا ما قالته ڤيرونيك فورتييه والدة سولانج التي وصلت إلى الجزيرة عصر ذلك اليوم مع زوجها. وكانت قد ترجّلت من سيارة آل بومونت التي توقّفت في الفناء الداخلي للمنزل الفخم، ثم راحت تجيل نظراتها في المنظر البادي أمامها باستحسان متعالٍ ما بدا لآن ماري كإهانة: «أعترف بأننا لم نتوقع مثل هذه الأناقة في مثل هذه البقعة الضيقة الأفق، أليس كذلك يا حبيبي؟».

ألقى القنصل موريس فورتييه، الدمث الطباع والفضي الشعر، ذراعه حول خصر زوجته النحيف تماشياً مع الموضة الحديثة، ثم ابتسم معتذراً لجوزيفين التي حملقت في والدة العروس بعينين ملتهبتين.

وتمتم يقول: «مما رأيته حتى الآن، بدت لي «بيلليفلير» مدينة ساحرة للغاية».

ڤيرونيك على صواب من ناحية واحدة، فهذا المنزل لم يوفّر أيّ مال أو جهد لكي يجعل الحفلة لا تُنسى. كانت باقات الأزهار الضخمة تزين برائحتها درجات المدخل وتملأ قاعات الحفلة برائحتها ثم تمتد إلى ما بعد الشرفة.

في الصالون الرسمي الفسيح، راحت عازفة تعزف على قيثارتها لتسلية الضيوف الجالسين إلى الموائد الصغيرة على الشرفة. أما على الشاطىء حيث اجتمع الشبان الصغار والشابات فتعالى صوت الموسيقى ليملأ جوّ الليل.

كان المكان مزدحماً عندما وصل آل بومونت، فكانت آن ماري شاكرة لذلك. فالإجهاد الذي أصابها بسبب الإدعاء بأن ما من شيء حدث بينها وبين إيثان الليلة الماضية قد أصبح مخيفاً. وزاد من عذابها أن التقاليد الاجتماعية تتطلب منه أن يرافقها دوماً.

قالت له متصلبة بعد أن قدمها بانحناءة مهذبة إلى آل تورنو: «أرجو ألا تشعر بأنك ملزم بالبقاء معي. أنا واثقة من أنك تفضّل التواجد مع أناس آخرين».

أخذ كأسين من العصير من نادل مرّ بهما، ودسّ واحدة منها في يدها: «إشربي هذا، يا آن ماري. فقد يساعدك على تحلية مزاجك. ولمعلوماتك الخاصة فقط، أنا لا أرغم أبداً على قضاء الوقت مع شخص أفضل أن أتجنبه».

ـ ربما، ليس كقاعدة عامة، لكن لم يكن لديك الكثير من الخيارات مؤخراً، أليس كذلك؟ أنا المرأة الوحيدة غير المرتبطة، وأنت الشخص المكلف بمهمة استضافتي وإكرامي.

تأملها طويلاً وقد بدا التفكير في عينيه الزرقاوين وهما تتحولان من قمة رأسها الأشقر إلى حذائها الذهبي الخفيف: «هل هذا برأيك هو سبب حضوري إلى جناحك الليلة الماضية؟ لاستضافتك وإكرامك؟».

احمرّ وجهها حتى اختلط لونها بلون ثوبها الوردي: «في الواقع، لم أفكر في ذلك كثيراً».

ـ أنت كاذبة فاشلة يا عزيزتي، إذ لم تفكري بسوى ذلك تقريباً.

وأمسكها من مرفقها بحزم يجذبها إليه: «وأظن الوقت حان لنتحدث إلى بعضنا البعض بصراحة».

فنظرت حولها بفزع: «هل تريد مناقشة أمورنا الخاصة هنا؟ بحق الله يا إيثان، لعلي تكلمت في وقت غير مناسب الليلة الماضية لكنني لا أستحق الإذلال أمام الناس».

فابتسم: «لن نتكلم هنا يا عزيزتي، بل سنجد مكاناً أكثر عزلة. هل

قلت لك كم تبدين جميلة الليلة؟»

ـ لا داعي للتزلف كي تخفف من صدمة ما ستقوله لي.

قال وهو يجذبها إلى زاوية هادئة من الشرفة: «وماذا لو كنت صادقاً ليس إلاّ».

قالت وقد تذكرت ما سببه لها الصدق من إزعاج في الليلة الماضية: «لست واثقة من أن الصدق أمر جيد دوماً».

ـ إنه الأمر الأهم بين الرجل والمرأة. كيف يمكن أن تُبنى الثقة إذا لم يكن هناك صدق؟

ازداد اضطرابها ونظرت بعيداً وهي تعبث بخاتم اللؤلؤ في إصبعها: «أنت على حق طبعاً... أنا لست كاذبة ماهرة، ولم أكن كذلك قط. في الواقع، أشعر أني لست تقريباً الآن بالشجاعة نفسها التي أظهرتها في الأمس. أنا في الحقيقة مذعورة جداً».

قال وهو يهدىء ارتجاف يديها: «دعيني إذن أنهي تعاستك».

ثم أردف: «أنت امرأة سخية ورائعة الجمال، يا آن ماري. أكره أن أكون أعمى فلا ألاحظ الجوهرة حين أراها... ولكن...».

إنه يحاول أن يخذلها بطريقة رقيقة... سيقتلها بلطف! قالت بعد أن لم تعد قادرة على احتمال العذاب: «لكنك لا تحبني. أعرف ذلك حقاً! فبالنسبة لبعض الرجال، ثمة امرأة واحدة، وحب كبير واحد وامرأتك وحبك كانا ممثلين في زوجتك السابقة».

ـ ليزا؟

وضحك غير مصدّق، ثم رفع يديه يمسك بأعلى ذراعيها: «من أن جاءتك هذه الفكرة الغريبة والبعيدة كل البعد عن الحقيقة؟ حتى أن اسمها قذر وفاحش».

كانت لمسته حازمة واثقة، وأنفاسه القريبة منها حارة. وللمرة الأولى في الأربع وعشرين ساعة الأخيرة، طرد الدفء ما شعرت به من برودة، وساورها القليل من الأمل. ولم تجرؤ حتى على التنفس خوفاً من أن تبدد

ذلك وتستفيق على واقع مرير وهمست: «ماذا تقول يا إيثان؟».

وقبل أن يجيب، خرج إلى الشرفة أربعة رجال. وما إن رأوه، حتى اتجهوا نحوه على الفور. فشتم بصوت خافت، ثم قال: «أنا آسف، يا آن ماري، ولكن على حديثنا أن ينتظر. إنهم زملاء عمل من ڤنزويلا وسيبقون هنا ليومين فقط. ثمة أمور عليّ أن أناقشها معهم، وإذا لم أقم بذلك الآن، فلا أدري متى ستسنح لي فرصة أخرى. هل لك أن تنتظريني في الحديقة حتى أنتهي؟».

أومأت بالإيجاب وقد جرفها التفاؤل.

ـ شكراً يا ملاكي.

لامس خدها بلطف، ثم أشار إلى نبات بعيد متعرش: «ثمة مقعد حجري خلف تلك النباتات وهو يطل على بركة سباحة صغيرة. يمكننا أن نجلس عليه ونتحدث من دون أن يزعجنا أحد. سنتقابل هناك».

* * *

كان المكان كما وصفه تماماً، معزولاً وهادئاً. وقد تدلّت أغصان النبات المتعرش على جانبيّ المقعد كما تساقطت بعض الأزهار عليه.

انحنت آن ماري تزيل أوراق الأزهار الذاوية عن المقعد الحجري الذي ستجلس عليه وهي تفكر في أنها تقترب من الفردوس بشكل لم تتوقعه. وبعد لحظات، سمعت صوت وقع أقدام يقترب من الناحية الأخرى من العريش. وتناهى إليها صوت امرأة منخفض مثير، ومألوف بشكل بغيض: «أمضيت وقتاً رائعاً. ميامي من المدن التي أحبها وإيثان من نوع الرجال الذي أحبه. لكننا كنا لنمضي وقتاً أفضل لو أنه لم يصطحب معه ابنه المزعج ذاك. بربك يا روبرتو، ما فائدة أن تملك أموالاً أكثر مما يمكنك إنفاقه في حياتك إذا لم تستعملها كما يجب؟ كان بإمكانه أن يترك الصبي تحت رعاية الخدم. أليسوا موجودين لهذا الغرض؟».

ـ نعم.

أجاب الرجل بهذا، فتذكرت آن ماري من لكنته الإسبانية البارزة

واسمه أين رأتهما وسمعت صوتهما من قبل.

روبرتو سانتوس وديزيريه لاسال في «بلانتاسيون كلوب» طبعاً!

وتابع يقول: «هل أفهم من هذا أنك وبومونت لم تناما في السرير نفسه؟».

ـ لا، للأسف!

ـ يا لها من خسارة. الرجل أحمق مما ظننت.

فقالت ضاحكة: «لكن لدينا الآن غرفتين متصلتين. وعندما ينتهي العرس ويرتاح من عبء مرافقة صديقة العروس الخياطة تلك، سنزور ميامي مرة أخرى. وصدقني يا روبرتو، عندما نفعل ذلك، لن يرافقنا الصبي، كما لن يفصل بيننا أي باب. سأحرص على ألاّ يفصل بيني وبين إيثان أي شيء... أبداً».

ـ هل تعنين بصديقة العروس الفتاة الكندية؟

ـ نعم، هل رأيتها؟

ـ للحظات فقط. إنها فاتنة!

فقالت بصوت أثقلته التسلية: «إذن أتمنى لك المتعة معها».

وما لبث الصوت أن أخذ يبتعد تدريجياً مع ابتعادهما فيما تابعت تقول: «وجدتها محزنة الهيئة للغاية، كما أظن أن إيثان المسكين يجدها كذلك. لكنه أفضل رجل في العالم، فهو يجيد تقبل الأوضاع الصعبة ببهجة، كما يبدو أنها تجيد التعامل مع الصبي. وما دام الصبي سعيداً، فسيتحمل إيثان الكثير... الكثير. أحياناً أظنه على وشك أن ينسى أن هناك حياة خارج نطاق الأبوّة...».

لم يعد المقعد دافئاً كما رأت آن ماري التي تشبثت بحافته المستديرة وكأن حياتها وقف عليه. كان بارداً صلباً وقاسياً. شعرت وكأنه يقطع يدها بقسوة كالسكين.

أغمضت عينيها بشدة وأخذت نفساً معذباً. لم يكن المقعد وحده هو المصنوع من الحجر! فكتلة منه بحجم قبضة اليد ملقاة بين أضلعها مكان

القلب، والألم الذي تشعر به جعلها تتمنى الموت.

لكن إيثان بومونت لا يستحق أن تموت من أجله. وإذا لم تكن تعرف ذلك من قبل، فقد أصبحت تعرفه الآن. كما لن تجلس هنا تنتظر قدومه في الوقت المناسب، مسلّحاً بمزيد من كلامه المعسول والخدّاع.

عادت إلى الشرفة فرأت على الفور أنه لا يزال مستغرقاً في الحديث مع ضيوفه إلى حدّ أنها لو وقعت مغمى عليها عند قدميه، فقد لا ينتبه. ومع ذلك، ورغماً عنها، لاحظت كل التفاصيل المتعلقة به.

كان قد وضع مرفقه على ذراع الكرسي، وأسند ذقنه بقبضته. أومأ مرة أو اثنتين، ثم هزّ رأسه بالإيجاب لكلام أحدهم، وتذكرت بتعاسة كيف حدق إليها الليلة الماضية بالإمعان نفسه، وملكها قنوط مؤلم للغاية ما جعلها تترنح.

كم كانت ساذجة حين ظنت بأنها تثير فيه شعوراً غير عادي! فقد سرقها من نفسها، سلبها كل ما كان يضفي على حياتها، ذات يوم، معنى.

وبعينين لا ترياان، مدّت يديها محاولة استعادة توازنها، فشعرت بيد رجل هادئة تمسك بيدها: «تبدين شاحبة، يا سنيوريتا».

وأضاف روبرتو سانتوس وهو ينحني فوقها: «هل ضربتك شمس الجزيرة؟».

كانت قطرات العرق تتجمع فوق شفتها العليا فيما جاشت معدتها فخشيت أن تصاب بالغثيان... : «يبدو كذلك».

همست بذلك فيما أحاط خصرها بذراعه وقادها إلى مائدة خالية قبل أن يسحب لها كرسياً: «سآتيك بشراب منعش».

قالت له بضعف: «شكراً، أنت شهم للغاية».

وعاد بعد ثوانٍ حاملاً في يده كأس ماء بارد فقبلته منه شاكرة. وبعد أن أخذت منه رشفة أو اثنتين، أفرغت البقية على جبهتها الساخنة.

سألها روبرتو سانتوس وهو يجلس على كرسي قبالتها ويراقبها من تحت جفنين ثقيلين: «أفضل؟».

فأومأت: «أفضل بكثير. لا أدري ما الذي حدث لي فجأة. لم يسبق أن أزعجتني الحرارة قبل هذه الليلة».

- إذن، لا بد أنّ اللوم يقع على شيء آخر...

- أنا واثقة من ذلك.

وأضافت من دون أن تحاول إدانة أحدهم فيجد الكلام طريقه إلى أذني ديزيريه لاسال الحقودتين: «أظنني أجهدت نفسي في العمل من دون أن أخرج كفاية».

- هل بإمكاني مساعدتك في شيء؟

لفت انتباهها جلبة عند المائدة القائمة في الزاوية فالتفتت ولاحظت أن إيثان رآهما فنهض عن المائدة فجأة ما جعل كأساً تسقط وتتحطم على الأرض.

عادت فالتفتت عمداً إلى سانتوس الذي تبعت نظراته نظراتها وقالت: «في الواقع أشعر فجأة بتحسن كبير. إذا شئت أن ترافقني، أريد كأس عصير وشيئاً آكله، وبعدئذ أريد أن أرقص».

لمعت أسنانه بابتسامة ذات معنى، فنهض وقدم لها ذراعه: «سيكون من دواعي سروري أن أرافقك وأقدم لك ما تشائين، سنيوريتا باركلي. هل نذهب إلى الداخل؟».

- بكل تأكيد ودعنا نتخلى عن الرسميات، خاطبني باسمي آن ماري من فضلك.

فتمتم وهو يحني رأسه حتى كاد شعره الأسود المربوط يلامس خدها: «سأدعوك باسم آنا ماريا لأنه يبدو بالإسبانية موسيقياً أكثر. ألا تظنين ذلك؟».

قالت وهي تمنحه ابتسامة مغرية للغاية: «نعم».

أحسّت بإيثان وهي تمر بالقرب من مائدته إلى حد أنه كان بإمكانه أن يمد قدمه فتتعثر، لكن بدا وكأن الغضب أعماه عن التفكير في ذلك.

هذا حسن. فليتذوق العذاب من باب التغيير! لكن عندما أصبحت في

الداخل، ولم يعد إيثان يراها، فقدت اللعبة سحرها فقالت تتوسل أن يتخليا عن رقصة السامبا الثالثة لما تتطلبه من طاقة: «لا أستطيع المتابعة. هل لك أن تبحث عن سائق السيد بومونت ليرافقني إلى البيت؟».

لكن تبيّن أن جوزيفين ولويس كلفا السائق بالمهمة نفسها منذ عشر دقائق. فقال روبرتو: «ما من مشكلة يا آن ماري، يسعدني أن أوصلك بنفسي».

علمت أنها إذا قبلت عرضه، فستتسبب بمشكلة، لكن ذلك لا يقارن بما عانته الليلة. وإذا حاول أن يتحرش بها، فستعرف كيف توقفه عند حده على الفور.

لكنه أدهشها إذ لم يحاول لمسها كما لم يتصرف بشكل يسيء إلى السمعة. لا بل أظهر تعاطفاً حقيقياً معها وعندما أنزلها عند بوابة الڤيلا ناولها بطاقة عمله قائلاً: «لو كانت الظروف مختلفة، لاقترحت عليك طريقة أخرى لقضاء السهرة. لكنك منزعجة للغاية لذا سأكتفي بأن أقول لك هذا: إن احتجت لأيّ خدمة أثناء وجودك هنا، يا أنا ماريا، فما عليك إلاّ أن تطلبي. أطلبيني على هذا الرقم في أي وقت، ليلاً أو نهاراً».

ارتبكت وهي تجد نفسها على وشك أن تبكي، فأخذت البطاقة وقالت: «سبق أن أعنتني كثيراً. ولا أدري كيف كنت سأمضي الليلة لولاك، لو لم تقدم لي يد العون في المنزل».

فهز كتفيه: «لم يكن أمامي خيار آخر. أنا لست شخصاً محبوباً في بيلليفلير فكما لا بد أنك تعلمين، اقترفت العديد من الأخطاء وقد أقترف المزيد قبل أن أموت. لكنني لست ذلك الشخص المتوحش كما يصورني إيثان. أنا مجرد رجل يجد صعوبة في أن يدير ظهره لامرأة في ضيق. ولهذا أقول لك مرة أخرى، إذا احتجتني فما عليك سوى أن تتصلي بي».

فقالت بضعف: «لا، لن يكون ذلك تصرفاً مناسباً. وفترة إقامتي انتهت تقريباً على أيّ حال. ولهذا قدم لنفسك معروفاً وانسَ أنّ هذه الليلة حصلت على الإطلاق، يا روبرتو. فأنا أنوي ذلك حتماً».

ساد سكون منتصف الليل في الحدائق المرقطة بنور القمر، بينما كانت تتجه نحو مسكنها. كل هذا الجمال الهادىء يحيط بها بينما لا تشعر بسوى القبح يغمر نفسها.

خلعت حذاءها ثم ركضت حافية القدمين ولم تقف حتى دخلت الڤيلا وهي تلهث خائرة القوى.

ما زال أمامها ثلاثة أيام... أخذت تتمتم بذلك وهي تتحسس طريقها إلى غرفة نومها، حيث استندت إلى الجدار، أضعف من أن تخلع ملابسها أو تصعد إلى السرير... ثلاثة أيام أخرى وأغادر هذا المكان... ما أطول هذه المدة!

ـ أنا موافق تماماً.

جاءها صوت إيثان من الظلام فأجفلها إلى حد صرخت معه بفزع. ثم، وقبل أن تستطيع تمالك نفسها، أضاء النور فبهرها فما كان منها إلا أن ألقت حذاءها من يديها ثم رفعتهما تغطي عينيها.

سألها ببرودة: «ماذا حدث يا آن ماري؟ هل يمنعك الخجل من أن تنظري إلي؟».

ـ أنا أخجل؟

طرحت سؤالها وهي تحوّل عينيها شبه المغمضتين إلى حيث جلس في شرفة غرفة نومها: «إنك جريء يا إيثان بومونت لتتهمني. من تظن نفسك لتتسلل إلى جناحي بهذا الشكل؟».

ـ أخائفة من أن يغضب صديقك الجديد؟.

واستقام في جلسته ثم تطاول بعنقه لينظر من الباب المفتوح: «أين سانتوس، بالمناسبة؟ مختبىء بين الأعشاب الطفيلية، ينتظر ليتأكد من خلو المكان فيقوم بخطوته التالية؟».

ـ لن أزعج نفسي بالرد عن هذا السؤال وعليّ ألا أدهش لمحاولتك تحميلي مسؤولية فشل هذه الليلة فمن عادة الفاسد أن يحمّل ضحيته اللوم.

ـ أنت ضحيتي؟

ووقف بهدوء فبدا طويلاً مرعباً: «إذن لا بد أنّ شيئاً ما فاتني في إدانتك في المنزل الكبير، فانطباعي كان مختلفاً جداً. نوريني من فضلك».

أشاحت بوجهها عنه لأنها ما زالت منجذبة إليه رغم مزاجه القبيح هذا، بحيث أن كل ما أرادته هو أن ترتمي بين ذراعيه وتنسى كل تلك التفاصيل المريعة التي عرفتها قبل ساعات: «قبل ظهور زملائك الليلة كنت على وشك أن تعرّي روحك لي إيثان. فما الذي كنت متلهفاً لأن تخبرني به؟ أنّ ديزيريه لاسال رافقتك في رحلتك إلى ميامي؟».

لم يجفل: «لا. ليس لديّ ما أخبرك به».

ـ أرجوك! سمعت ديزيريه تتباهى بأن غرفتيكما متصلتان بباب.

ـ نعم؟ وما قصدك؟

فصرخت: «قصدي أنك كذبت عليّ. لقد أخبرتني أنها لا تهمك».

ـ وهي لا تهمني فعلاً.

ـ لماذا أخذتها معك إذن؟

ـ أرادت أن تذهب للتسوّق في ميامي، والرحلات الجوية من هنا إلى اليابسة قليلة جداً. إن لديّ مكاناً في طائرتي الخاصة، فهل هذا يجيب على سؤالك؟

ـ قالت...

ماذا قالت ديزيريه لاسال بالضبط؟ وعادت تقول: «قالت...».

ـ في الحقيقة لا يهمني ما قالت. ما يهمني هو أنك بنيت على ما قالته استنتاجات كثيرة. وكنا قد تحدثنا عن الثقة بيننا. إذا أزعجك ما كان بيني وبين ديزيريه وكدّرك فلما لم تأت إليّ، بدلاً من أن تطلبي السلوان من رجل مثل روبرتو سانتوس؟

ـ إذا لم يكن لديك ما تخفيه، فلما لم تخبرني بنفسك أنها رافقتك؟ كان لديك فرصة لذلك.

ـ أنا مضيفك ولست زوجك، يا آن ماري. ولا أحتاج إلى إذن منك كما لست مديناً لك بأيّ شرح. وإذا كنت قد نسيت، فأدريان أيضاً ذهب معي

إلى ميامي. ولا يمكن أن أعرضه لهذا النوع من السلوك المشين، وأظنك تعرفينني جيداً من هذه الناحية.

رأت الحقيقة والمنطق في ما قاله، لكن عدم تأثره بتكدرها وانفعالها دفعها إلى التهور، فقالت: «بصراحة، أنا لا أعرفك جيداً على الإطلاق».

ـ وأنا لا أعرفك أيضاً. من الجيد أن نكشف لبعضنا البعض ألواننا الحقيقية قبل أن تتطور علاقتنا أكثر.

ـ علاقتنا لن تتطور أكثر يا إيثان! أتظنني لا أعلم ما كنت تنويه الليلة؟ كنت مهذباً ولبقاً وساحراً للغاية لكن ذلك لا يغير أنك كنت تبحث عن طريقة لتتخلص مني بلباقة.

ـ أحقاً؟ حسناً، من المؤكد أنك وفرت لي هذه الطريقة، أليس كذلك؟

ـ وكيف ذلك؟

ـ لقد جعلت من نفسك أضحوكة حين ظهرت مع الرجل الوحيد في العالم الذي تعلمين أنني أحتقره أكثر من أي شخص آخر. لقد سمحت له بأن يراقصك ثم صعدت في سيارته فيما أنت تعرفين ماضيه في القيادة وأخلاقه القذرة أيضاً.

ـ تصرف معي كأكثر الرجال تهذيباً.

ـ إذن. يمكنني أن أقول إن مفهوم التهذيب عندك يختلف تماماً عن مفهومي، وهذا لا يدهشني نظراً لسلوكك الشنيع.

حدقت إليه ثائرة: «سلوكي؟».

فبادلها التحديق بجمود.

ـ نعم، سلوكك! فقد وصلت إلى الحفلة معي، ثم، وأمام كل الناس الذين عرفتهم في حياتي، وعاملوك بكل تهذيب واحترام، غادرت الحفلة معه. لعل هذا مقبول في محيطك، لكنه ليس مقبولاً في محيطي. بعد هذا يا عزيزتي آن ماري، أنا واثق من أنك ستفهميني إذا قلت لك إن بإمكانك أن توفري كلمات الحب لمن يريد أن يسمعها لأنها لا تهمني أنا بكل تأكيد.

فهتفت: «يا إلهي! وهل ظننت لحظة واحدة أنني كنت أخدع نفسي

وأعتقد أنك تهتم بي؟».

ـ لكنني كنت مهتماً بك فعلاً. فأنا لم أتعود أن أضيع وقتي مع امرأة لا تهمني.

ـ لكن عليها أن تكون كاملة الأوصاف مثلك تماماً، وإلا ستصبح من التاريخ! لا عجب في أن زوجتك تركتك لترحل مع رجل آخر. لعلها لم تحتمل العيش مع قديس.

فقفز عن الكرسي وقد احمر وجهه غضباً: «أنت تدفعينني لأن أنسى أنني رجل متحضر».

ـ أنت لا تريد هذا، أليس كذلك يا إيثان؟ فقد يظهر لك هذا أنك كأي رجل آخر يمكن أن تضعف.

لقد تجاوزت حدّها... تجاوزته كثيراً!

تقدّم نحوها بسرعة ورشاقة فوجدت نفسها تتراجع ببطء نحو الباب. لكنه مدّ ذراعه يمسك بها ثم جذبها إليه ليعتصرها بين ذراعيه بعنف جعلها تئن.

وبعد لحظة، أمسك بذقنها ينظر إلى وجهها وقال بعنف: «أتظنين أني لا أملك حصتي من الضعف؟ وأنني لا أقترف أخطاء وأحتقر نفسي بعد ذلك؟ أنظري إذن الآن إلى الاشمئزاز في عيني يا آن ماري وفكري مرة أخرى!».

دفعها جانباً وكأنها قطعة حطام من سفينة وجدها على أحد شواطئه الرائعة الجمال، ثم خرج متشاغلاً.

***

١١ ـ لن تخرجي سالمة

تجربة حفل الزفاف أقيمت في المساء التالي. في التاسعة صباحاً حضر خادم حاملاً رسالة من إيثان يستدعي آن ماري إلى البيت الكبير.

ـ ماذا فعلت بابن أخي؟

همست جوزيفين بهذا وهي تلاقيها في الفناء الداخلي حال وصولها: «الحرارة تنخفض إلى درجة التجمد في كل مرة يظهر فيها! هل أفهم من ذلك أنكما تشاجرتما؟».

وضغطت جوزيفين على ذراع آن ماري بعطف: «أدعو الله أن يخرجك من هذا سالمة يا طفلتي».

كانت الغرفة قد حُوّلت إلى ما يشبه المكتب. تركها تتبعه كالخادم المطيع، ثم اجتاز الغرفة وجلس على مقعد جلدي أسود خلف مقعد ضخم مصنوع من الخشب: «اجلسي».

لم تكن آن ماري قد نامت جيداً. في الواقع، لم تنم على الإطلاق، لكنها بكت كثيراً من دون فائدة، كما بدا من عينيها المنتفختين وبشرتها المبقعة. لم تشعر برغبة في أن تستحم في الصباح الباكر، فيما الرجل المسؤول عن تعاستها كلها يبدو منتعشاً.

بقيت واقفة عند الباب وقالت: «لا، شكراً. ولا أدري لما أرسلت في طلبي، لكن من الأفضل أن يكون السبب هاماً فلدي الكثير من الأمور التي عليّ الاهتمام بها اليوم».

ـ إذن سأبدأ مباشرة ببيت القصيد.

قال هذا فارتجفت بالرغم منها. شعرت أن الأمل المتبقي لديها، الأمل بأن تكون قد تغيرت مشاعره منذ رأته آخر مرة، ظهر في صوته. فتح الدرج وأخرج منه البذلة التي خاطتها لأدريان، وألقاها على المكتب: «سنبدأ بهذه».

ـ أفترض أن لديك مشكلة مع هذه؟

ـ سؤالك هذا يظهر مدى قلة التشابه بين ذوقينا أو رأيينا في ما يتعلق بتناسبها مع المناسبة.

تقدّمت ومرّت بيدها على قماش البذلة: «وأظن أنه لا يهمك مثقال ذرة أن أدريان اختار هذه من بين العديد من الأزياء التقليدية. وهو سعيد جداً بها وبفكرة ارتدائها؟»

فقال باستخفاف: «يمكنه أن يرتديها في مناسبات أخرى كحفلة المدرسة السنوية، أو حفلة عيد الميلاد التنكرية مع الأصدقاء، ولكن لا يمكنه أن يظهر في عرس الأسرة في هذه البذلة. لعلك نسيت سبب وجودك هنا. أم أنك لا تعرفين الفرق بين طقوس العمادة الوقورة، وتهريج هوليوود المثير؟»

ـ إنه مجرد صبي صغير يا إيثان وقد أراد أن يلبس بذلة مميزة ومختلفة لأنه سيحمل الخواتم.

ـ سيلبس بذلة خاطها له خياطي الخاص.

ـ أتعني أنه سيجبر على ارتداء بذلة مصممة للكبار؟ يا إلهي! ربما تتوقع منه بعد ذلك أن يحلق ذقنه!

ـ هذا ما أتوقع منك أن تهتمي به.

تنهدت وأدارت عينيها: «والآن وصلنا إلى السبب الحقيقي لاستدعائي لمواجهة سيادتك».

فقال متجاهلاً لهجتها: «دورنا كشاهد عريس ووصيفة شرف يعني أننا لا يمكن أن نتجنب بعضنا البعض حتى ينتهي العرس. رغم رغبتنا البالغة في أن ينتهي الأمر بسرعة، إلاّ أن هذه الفترة هي لسولانج وفيليب. لن

أسمح بحصول ما يفسد عليهما فرحتهما. كما لن أسمح بأي تصرّف قد يلفت الانتباه سلباً إلى اسم أسرتي وسمعتها. هل نفهم بعضنا البعض، يا آن ماري؟».

فقالت بحدة: «تماماً. إنما لمعلوماتك الخاصة فقط، سأوافق على شروطك احتراماً لأعضاء أسرتك الآخرين ومن أجل صديقتي الحميمة. فبصراحة، ما تريده أنت أو لا تريده لم يعد يهمني أبداً».

ـ وحدها المظاهر تهمني.

قال هذا وأدار كرسيه فأصبح ظهره لها: «ما دمنا متفقين على ذلك، لم يعد بيننا ما يقال، ويمكنك أن تنصرفي».

كانت تفضّل أن تخرج بوقار لكن ازدراءه لها أثار فيها غضباً لا يمكن أن يمرّ من دون أن تشفي غليلها: «من تظنني أمامك، أيها المتغطرس؟».

رمته بهذه الكلمات وهي تحملق في قفا رأسه الأرستقراطي الوسيم: «أنا لست من أفراد شعبك في إمبراطوريتك الألعوبة هذه، التي تحرّك خيوطها. لن أتلقى أوامر منك! كما لن أرضى بأن أكون طرفاً في حربك السخيفة ضد روبرتو سانتوس. أنا لم أفعل شيئاً يجعلني أستحق هذه المعاملة».

ـ أظهرت أنك لا تستحقين الثقة وأنك غير ناضجة.

ـ أما سلوكك أنت فهو طبعاً فوق الملامة دوماً.

وتهدّج صوتها رغم جهودها: «على أيّ حال، لم تكن محاولاتي وجهودي كافية قط أليس كذلك؟ شكوكك لم تتبدد قط».

فقال بجمود: «ما الغاية من مناقشة هذه الأمور الآن، يا آن ماري؟ لا شيء مما تقولينه يغيّر حقيقة أنني ظننتك مختلفة عن المرأة التي تزوجتها، ولكنك أظهرت أنك من معدنها بالضبط».

ـ أحقاً أظهرت ذلك؟ حسناً ومن باب الفضول فقط، هل كنت لتظهر هذا الغضب كله لو كنت استعنت برجل آخر غير روبرتو سانتوس في الليلة الماضية؟

استدار يواجهها بوجه متحجر: «من باب الفضول فقط، هل كنت لتزعجي نفسك بالتوجه إلى رجل آخر غير روبرتو سانتوس لتعلني على الملأ استياءك مني؟ أليس هذا هو الهدف من العرض الصغير الذي قدمته؟».

فقالت من دون أن تهتم بكبريائها أو كرامتها: «لا، بل كنت محطمة بعد ما سمعته فتقدّم مني وأنقذني من أن أتصرف بحماقة أمام الغرباء. لكن لو كان الخيار خياري لفضّلت أن تتقدم أنت لنجدتي. وبدلاً من ذلك، سبقتني إلى جناحي ثم هاجمتني باتهاماتك قبل أن أستطيع تمالك نفسي».

ـ وحده الشخص الذي لديه ما يخفيه يحتاج إلى وقت لكي يختلق قصة معقولة.

فقالت هازئة: «لدي ما أخفيه؟ أنا لم أسافر مع رفيق على متن طائرتي الخاصة من دون أن أذكر كلمة عن ذلك. لكن بما أننا نوضح الآن الأمور فهلا أخبرتني كيف استطعت أن تصل إلى البيت قبلي في الليلة الماضية؟ ولا تزعج نفسك بالقول إن السبب هو استغراقي في الغزل لأن روبرتو أوصلني إلى جناحي مباشرة».

ـ قطعت طريقاً مختصرة خلال الدغل.

ـ في الظلام؟

ـ أنسيت أنني ولدت في هذه الجزيرة وأني أعرف أنحائها كلها كما أعرف وجهي.

ـ إذن، كلما يمكنني قوله هو إن من المؤسف أنك لم تقطع الاجتماع المرتجل مع زملائك بالسرعة نفسها، وإلاّ لما كنا لنخوض هذا الحوار الآن.

ـ لا يمكن للإنسان أن يبني حياته على الافتراضات والإمكانيات، يا آن ماري. بل عليه أن يواجه الواقع الملموس. أنا وأنت من عالمين مختلفين، وكنا أحمقين عندما اعتقدنا أن بإمكاننا أن نجد أرضية مشتركة كأساس لعلاقة دائمة. والدليل هو أن مجرد حادثة عرضية، مثل سماعك ذلك الكلام، كان كافياً ليدمر جهودنا.

فقالت وهي تندفع نحو الباب شاعرة بفراغ عاطفي في داخلها: «إذا

كنت تتحدث عن ديزيريه لاسال، فهي غير مؤذية بقدر العقربة الإفريقية الضخمة. وأرجو، من أجل مصلحة أدريان، أن تدرك ذلك قبل أن تقع في مخالبها».

فأجابها بعنف: «يمكنني أن أنجو من كل ما تحيكه لي ديزيريه. كما نجوت من ليزا ومنك أنت».

* * *

أقيمت تجربة مراسم الاحتفال الكنسي عند الساعة الخامسة في كنيسة المدينة، ولعل هذه هي خطوة نحو الفردوس بالنسبة إلى سولانج وفيليب. لكنها بالنسبة إلى آن ماري كانت خطوة نحو الجحيم.

بعدئذ، أقام والدا العروس حفلة عشاء في نادي «بلانتاسيون كلوب»، تجربة فظيعة للغاية إذ ذكّرتها بآخر مرة كانت فيها مع إيثان.

كانت الأمور بينهما أوضح عندما اقتصرت على الافتتان بوسامته، هذا الافتتان الذي أخفته تحت غطاء الرسميات والغطرسة والزهو. لكن اضطرارها للجلوس قربه بعد خلافهما، يسبب لها أشد العذاب.

كيف يمكنها أن تتعامل مع هذا الرجل البارد المتبلد الإحساس الجالس قربها الآن، فيما قربه وحده يجعلها غارقة في التعاسة؟

قال لها من دون أن ينظر إليها وبعد أن رُفع الطعام عن المائدة: «أظننا اتفقنا على أن نضع خلافاتنا جانباً».

ـ أنا أحاول ذلك.

ـ أقترح إذن أن تحاولي أكثر. فلست الوحيدة التي تعاني من نكسة، لكنك لا ترينني أتمرغ في رثاء ذاتي.

أجابته وهي تحدق إلى كأسها: «أنا لست أنت، يا إيثان. ليس لديّ قدرتك الفولاذية على الانفصال عن مشاعري».

وجاهدت لكي تضبط نفسها وكادت تنجح، لكن ارتجاف صوتها المحزن كشفها.

وعاد يقول: «قد تجدين الأمر أسهل إذا حاولت أن تتحدّثي مع الآخرين بدلاً من أن تبقي صامتة. فإذا استمريت على هذا المنوال، قد ينسون وجودك».

التفتت إليه تحملق فيه غاضبة: «لكنني أتحدث إلى الآخرين وأبذل قصارى جهدي لأكون اجتماعية».

فقال بصوت ساخر: «أعلم هذا. لكنك أصبحت على الأقل من الغيظ بحيث تظهر عليك الحياة، بدلاً من أن تتصرفي وكأنك جثة».

ـ يدهشني أنك لاحظت ذلك.

ـ لنأمل أن أكون الوحيد الذي فعل، لأنني عنيت ما قلته هذا الصباح. لقد تسببت بما يكفي من المشاكل حتى الساعة، ولن أقف جانباً وأتركك تسببين المزيد منها. لن أدع شيئاً يعكر صفو عرس أخي.

فقالت بغضب: «لا تحاول أن تنظم أموري يا إيثان. فلن أسمح لك أو لغيرك بذلك».

ـ ليس لديك أي خيار في الأمر يا عزيزتي. جلّ ما يمكنك فعله هو أن تعزي نفسك بأن كل شيء سينتهي في مثل هذا الوقت غداً ولن يكون عليك أن تمتثلي لأوامري أبداً بعد ذلك.

ـ هذا صحيح.

وتجرّأت على أن تواجه عينيه مرة أخرى ثم رفعت كأسها بنخب ساخر: «نخب العودة كما كنا قبل أن نتعارف».

لكنها لن تعود أبداً كما كانت، فقد احتلّت امرأة محطمة مكان المرأة الخالية القلب وسيدة الأعمال الناجحة التي وصلت إلى بيلليفلير منذ أكثر من شهر والتي سترحل الآن نهائياً. كل الأمور التي كانت تعتبرها هامة ذبلت أمام حبها لرجل لا يريدها، ولصبي صغير يحتاج إليها لكنه لا يستطيع الحصول عليها.

* * *

تلك الليلة وقف إيثان كعادته عند باب غرفة أدريان.

لطالما كان هذا الوقت المفضّل لديه، فالبيت هادىء، وابنه نائم بسلام، لكنه أصبح مهماً بشكل خاص بعد رحيل ليزا.

في تلك الدقائق الهادئة، كان إيثان يتأمل وجه ابنه من دون أن يخشى الكشف عن الشكوك التي تتملكه. هل يمكنه أن يوصل بصمت الكلمات التي يتمنى أن يقولها علانية؟

هل أكفيك يا صغيري؟ هل تلومني لأن أمك رحلت؟ هل كان ينبغي أن أذهب في إثرها وأعيدها من أجلك؟ أتبكي من أجلها عندما لا أكون هنا لأمسح دموعك؟ هل تخاف أن أرحل أنا أيضاً ذات يوم، ولا أعود أبداً؟.

وكانت أحياناً تجتاحه موجة قوية من الحب الأبوي فتكاد تخنقه، فيشعر عندئذ برغبة جارفة في أن يحتضنه كما اعتاد أن يفعل حين كان طفلاً رضيعاً.

أحياناً، كان الطفل يتحرك فيدعك عينيه بقبضته ثم يتمتم ناعساً: «أنا أحبك يا بابا» قبل أن يعود إلى النوم. في هذه الحالة كان قلب إيثان يمتلىء بالامتنان فيتسلل خارجاً من الغرفة، عالماً أنه هو نفسه سينام بسلام.

لكن ليس الليلة. فهو يشعر بضياع أكبر مما شعر به يوم رحلت زوجته السابقة. اقترب من السرير بقلب مثقل، خائفاً مما قد يقرأه على وجه ابنه النائم.

كانت وجنتاه متوهجتين، وأهدابه سوداء، وفمه ناعماً كأفواه النساء. لكن آثار الدموع الجافة حدّثت عن عاصفة من المشاعر كما كانت تلك البذلة السخيفة ملقاة على الأرض قرب السرير.

ـ لما لا أستطيع أن ألبسها؟ إنها بذلتي وأنا أحبها!

ـ إنها غير مناسبة، يا ولدي.

ـ لكن آن ماري خاطتها خصيصاً لي. قالت...

ـ لا يهم ما قالته. إنها لا تفهم كيف نعيش هنا في بيلليفلير. إنها ليست واحدة منا.

ـ بل هي كذلك. لماذا تفسد دوماً كل شيء؟ سترحل آن ماري بعيداً كما

فعلت ماما. وكل هذا ذنبك! أنا أكرهك يا بابا.

أوشك إيثان أن يمد يده ليلامس شعر ابنه، لكنه توقف فجأة وابتعد، ليس خائفاً من أن يوقظ ابنه إنما من ألا يستطيع هو نفسه احتمال النظرة في تينك العينين السوداوين.

أخذ يفكر وقد تملكه الندم في أنه السبب في ما حصل، فقد اهتز عالمهما حين سمح لها بأن تقترب منهما. فلو أطاع غريزته وأبقاها بعيدة عنهما، لما وصلت الأمور إلى هذا الحد.

* * *

حيّت الشمس بأشعتها الرائعة يوم العرس واستيقظت آن ماري باكراً، فخرجت تستقبل صباحاً مليئاً بتغريد الطيور وشذا الأزهار، ثم أخذت تحدث نفسها: (يمكنني أن أفعل هذا. يمكنني أن أواجه كل من ألقاه اليوم. يمكنني أن أسير في ممر الكنيسة إلى المذبح رغم أن إيثان سيكون موجوداً. ولن أدع الأحلام المستحيلة تضعفني، لن أذوب أسى ولهفة على ما لا أستطيع الحصول عليه).

تمسّكت بهذه الأفكار فيما كانت تتناول الفطور مع سولانج ووالديها ووصيفة العروس الأخرى أنجيليك تورنو. وابتلعت ريقها بصعوبة عندما رأت نتيجة ساعات عملها على سولانج التي تألقت في ثوب عرسها الذي بدا أشبه بسحابة. وأخذت تشجع نفسها مرة أخرى، وتقوّي من عزيمتها.

عندما اجتمعوا في الفناء الداخلي حيث تنتظرهم عربتان لتأخذهما إلى الكنيسة، ورأت أدريان الذي بدا صورة مصغرة عن أبيه في بذلة الصباح الرسمية غالبت دموعها وزمت فمها مصممة على ألاّ تفكر في الوداع. كل شيء في حينه، يا آن ماري!

قال أدريان وهو يركض إليها ليمسك بيدها: «تبدين جميلة جداً يا آن ماري».

ثم حدّق إليها وكأنها أجمل مخلوقة وأضاف: «أنت أجمل من سولانج.

أجمل من أي إنسان في العالم».

وللحظة قصيرة كادت تنهار وأخذت تكافح غصة في حلقها وهي تشد من عزمها. فقالت له آملة ألا يلاحظ تهدج صوتها والتواء ابتسامتها: «وأنت أكثر الرجال الصغار الذين عرفتهم وسامة».

وبعد وقت قصير، وفيما صدى جرس الكنيسة يتردد خافتاً في أنحاء الجزيرة، نزلوا من العربتين ثم انطلقوا. معظم سكان الجزيرة وقفوا على جانبي الطرقات متلهفين لرؤية العروس، أما البقية فاجتمعت في ساحة المدينة الرئيسية.

أثناء الأحداث اللاحقة تمكنت آن ماري وبشكل ما، من المحافظة على رباطة جأشها.

لكن عندما حان الوقت لتتأبط ذراع إيثان وتسير بجانبه عائدين من ممر الكنيسة، وجدت نفسها عاجزة عن القيام بذلك. قوة إرادتها وتصميمها الصلب تبخرا وراحت ترتعش بشكل واضح إلى حد أن باقة الغاردينيا الصغيرة التي حملتها أخذت تهتز وكأن الهواء عصف بها فجأة.

تمتم إيثان وهو يمد يده ليثبتها: «تماسكي. يكاد الأمر أن ينتهي».

لكنه لم ينته سريعاً، إذ كان عليها أن تقف بجانبه أمام عدسات المصورين، وأن تركب العربة معه في رحلة العودة إلى الڤيلا. واضطرت لأن تجلس بجانبه أثناء حفل الاستقبال وأن تبتسم بلطف. وعندما حلّ الغسق الإستوائي المبكر وأضافت آلاف الشموع ضوءها إلى ضوء القمر، رقصت معه. شعرت بذراعه حول خصرها وبيده دافئة على ظهرها.

كان ذلك مؤلماً للغاية ويدعو إلى السخرية...

قالت وهي تغمض عينيها بشدة لتغالب دموعها: «لا يمكنني أن أحتمل المزيد».

ـ أتعنين مني أنا؟

ـ منا نحن الإثنين.

ـ ما من (منا). لم يكن لذلك وجود من قبل، في الحقيقة. برأيي لقد

جئت إلى هنا كضيفة وجعلتنا نرتبط ببعضنا البعض بإحساس زائف فظننا أننا ننتمي إلى بعضنا البعض، وأننا حبيبان. وبشكل ما نسينا أن كل ذلك مجرد ادعاء.

ـ وجّه اللوم إلى كل شيء إذا شئت. لكن الحقيقة هي أنك كذبت عليّ واستغفلتني ولم تشأ أن تتحمل اللوم لذلك.

ـ يمكنك أن تقتنعي بذلك وتصدقّيه، إذا كان يريحك. المهم هو أننا عدنا إلى رشدنا قبل أن يحصل ضرر دائم.

كم تحسده على مرونته! للحظة قصيرة مباركة، كرهته لأنه خرج من دون أذى فيما هي مجروحة حتى الصميم.

ـ تحدّث عن نفسك يا إيثان، لكن إياك أن تفترض أنك تعلم حقيقة ما أشعر به! أنت أفسدت علاقتنا، وقد استمعت إليك بما يكفي محاولة أن أفسر ما حصل بشكل منطقي.

أدارها للمرة الأخيرة بعد أن توقفت الموسيقى ثم تركها: «إذن، ستشعرين بالارتياح إذا علمت أن المحنة انتهت. يبدو وكأن العروسين يستعدان للرحيل. من الأفضل أن تنضمي إلى العازبات اللواتي يحمن حول العروس على أمل الزواج مثلها».

قالت وهي تشعر بالبرد بعد الدفء الذي غمرها من لمس يديه: «لا».

ـ بلى.

وأمسك بمرفقها يجرها نحو السلم الكبير حيث وقفت سولانج مستعدة لإلقاء باقة زهورها من فوق كتفها: «هذه واجباتك».

نفضت عنها يده التي تمسك بها: «حسناً، سأقوم بهذه الخدمة الأخيرة ثم أتحرر منك ومن توقعاتك المستحيلة!»

وقفت ساخطة واهنة العزيمة وتعمّدت أن تبتعد عن الفتيات اللاتي تجمعن بلهفة أسفل السلم. لتلتقط إحداهن تلك الزهور اللعينة إذا كان الزواج يعني السعادة لها! فبعد تجربة الحب الأخيرة التي عاشتها أصبح الزواج في أسفل سلم أولوياتها.

لكن، إما أن سولانج استهدفتها وإما القدر لم ينتهِ بعد من تعذيبها، إذ حامت باقة الأزهار فوق الرؤوس واتجهت مباشرة إلى آن ماري. وبشكل غريزي، مدت يديها وأمسكت بها...

عندئذ، راح كل شخص من الحضور يهتف ويصفق لها. كل شخص ما عدا إيثان، فحين التفتت إلى الجموع، لم تره بينها.

***

www.elromancia.com

١٢ ـ بين حياة وموت

حزمت آن ماري أمتعتها واستعدت للرحيل في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي. كانت رسالتها لإيثان جاهزة، وقد اتصلت بمورتون ليحضر الأمتعة إلى البيت الرئيسي ويرتب أمر سيارة تقلها إلى المطار. ما بقي عليها إلا أن تزور جوزيفين لتودعها، وستجدها حتماً في مثل هذه الساعة في الشرفة تشرب القهوة.

وقفت أمام ڤيلا الضيوف تلقي نظرة أخيرة من حولها، وقد تملّكها خدر غريب في جسمها. بدت الڤيلا أشبه بمنزل منفرد مهجور، مليء بالأشباح، لكن سرعان ما تستعيد وهجها وتألقها مع وصول المجموعة التالية من الضيوف. فهل يعني هذا أنها ستتخلص من تأثير إقامتها بسهولة هي أيضاً؟

كبحت آهة ثم استدارت وسارت ببطء في الحدائق والذكريات تتعاقب.

وكما توقعت وجدت جوزيفين جالسة كعادتها على كرسي من الخيزران وأمامها صينية. سألتها وهي تحدق إليها بمزيج من الدهشة والسخط: «ماذا تعنين بأنك راحلة؟»

وتوقفت عن إعادة ملء كوبها ثم أردفت: «توقعت أن تبقي أسبوعاً آخر على الأقل، يا طفلتي. والآن وقد انتهت الإثارة وعاد المكان إلى سكونه، كنت متشوقة لقضاء وقت هادىء معك».

ـ آسفة لأني خيبت أملك. لكنني ببساطة لا أستطيع البقاء، يا سيدة دكلوس. أنا لا أنتمي إلى هذا المكان. وبعد أن رحل فيليب وسولانج لقضاء شهر عسلهما، لم يعد هناك سبب يحملني على البقاء. لكنني لم أستطع أن أرحل من دون أن أقول لك كم تهمني صداقتك وكم أعتز بها.

ـ صداقة؟ أنت فرد من الأسرة، وتباً لروابط الدم!

أسرة! إنه الشيء الوحيد الذي تفتقده بشكل بالغ. آه لو كان بإمكان هذه الأسرة أن تجعلها فرداً منها. لكن هذا غير ممكن. وهي لا تريد أن تكون أخت إيثان أو ابنة عمته.

شهقت وقد نسيت رغبتها في الخروج من هذا البيت بوقار ورزانة ثم قالت بصوت متهدج: «هذا أفضل ما يمكن أن تقوليه لي. وأنا أحبك جداً، أحبك حقاً!».

ـ يكفي أن تندهي لهذه المرأة العجوز «بعمتي جوزيفين» وتبقي معها أكثر.

ـ يشرفني أن أدعوك «عمتي»، ولكن...

حاولت أن تتخلص من غصة في حلقها ففشلت ثم قالت بصوت مخنوق: «أنا مضطرة للرحيل».

تأملتها جوزيفين بدهاء: «لم ينجح الأمر مع إيثان إذن؟ هذا ما ظننته من تصرفكما أمس».

ـ هل كان أمرنا واضحاً؟

ـ لي أنا وحدي يا طفلتي، وهذا يكفي. أنا آسفة جداً!

ـ كانت احتمالات الفوز ضعيفة منذ البداية.

ـ أليس ممكناً أن تصلحا الأمور إذا ما بقيت؟

ـ لا.

ونزلت دمعة على خدها فمسحتها: «أنت نفسك حذرتني من أن إيثان لا يتراجع عن قراره أبداً. وهو للأسف اتخذ قراره معي».

تنهدت جوزيفين وأسندت رأسها إلى ظهر كرسيها: «يبدو أنك أنت

أيضاً اتخذت قرارك».

- نعم.

- تعلمين أنّ عليك أن تعودي إلى هنا مراراً. ما من طريقة أخرى.

- قد آتي، لكني لن أمضي مدة طويلة.

- بسبب ابن أخي؟

- أنا لا أحسن التوديع. ولهذا السبب سأطلب منك أن تعطي هذه لإيثان.

ووضعت الرسالة على المنضدة ثم أضافت: «لا يمكنني مواجهته مرة أخرى».

فقالت جوزيفين بملل: «أنت مضطرة لذلك، فقد سافر إلى فنزويلا الليلة الماضية بعد انتهاء العرس مباشرة».

وانتصبت في جلستها وسمّرت نظراتها الثاقبة على آن ماري: «إذا كنت مصممة على الرحيل، فسأعطيه رسالتك حين يعود لكنني لن أتصرف مع أدريان كساعي بريد. سيهلك إذا ما رحلت من دون أن تريه».

بلعت آن ماري ريقها بصعوبة: «أعلم هذا وأشعر بالذعر لاضطراري لأن أخبره برحيلي فقد أحببته... أحببتكم جميعاً من كل قلبي».

- ونحن أحببناك أيضاً، يا عزيزتي. أعني العاقلين منا على الأقل.

ومدت إليها ذراعيها: «عانقيني لأتذكر هذا العناق حتى نجتمع مرة أخرى».

سارت آن ماري إليها شبه عمياء من الدموع المنهمرة على خدّيها وقبلت جوزيفين على خدها وانهمرت دموعها مرة أخرى: «إلى اللقاء يا عمتي».

أنهى لحظة الوداع هذه سعال محتشم: «السيارة بانتظارك لتقلك إلى المطار عندما تصبحين جاهزة، يا آنسة. وقد أخبرت الطيّار أنك ستحتاجين إلى طائرة الأسرة لتوصلك إلى اليابسة حيث المطار الدولي».

فتمتمت جوزيفين بصوت أجش: «إلى اللقاء يا طفلتي. في رعاية الله».

أومأت آن ماري وقد خنقتها العبرات، وطبعت قبلة أخيرة على خدها ثم تبعت رئيس الخدم إلى الفناء الداخلي، حيث وجدت أدريان تحت شجرة جوز هند وقد تغضن وجهه بالتعاسة. عندما رآها قال باكياً: «لا أريدك أن ترحلي. أرجوك ألاّ تذهبي. أرجوك!».

لم تكن تظن أنّ لديها المقدرة على احتمال المزيد من العذاب، لكن رؤيته وصوته حطما قلبها أكثر: «أواه يا أدريان، كنت أود أن أبقى لو استطعت ذلك».

فصرخ: «هذا ما يقولونه دوماً، لكنهم يذهبون ويتركونني وحدي. أمي ذهبت أولاً، ثم بابا، وها أنت الآن ترحلين».

فقالت وهي تركع أمامه وتحتضنه: «لكن أباك سيعود قريباً. فهو دوماً يعود يا حبيبي، كما تعلم».

لكن أدريان كان قد وصل إلى حالة من التعاسة لم يقبل معها أيّ عزاء، فقال وهو يشهق باكياً: «لا. لقد رحل لأنني كنت فتى سيئاً، لم يعد يحبني».

- أنت لست سيئاً أبداً. أنت أحسن ولد في العالم وأبوك يحبك جداً.

- لا، لم يعد يحبني.

وعادت دموعه تنهمر بينما راح جسمه يرتعش: «لم يعد أحد يحبني. حتى أنهم لا يلاحظون وجودي».

رفعت آن ماري بصرها تلتمس العون بصمت من المربية التي وقفت بعيداً، فبادلتها المربية التحديق غير قادرة على مساعدتها. وكيف يمكنها ذلك فيما الكثير مما يقوله أدريان صحيح؟

فباستثناء دوره الصغير في العرس أمس، وقف جانباً خلال التحضيرات للعرس. والآن وبعد انتهاء العرس، تركه الأشخاص الذين كان يعتمد عليهم واحداً تلو الآخر. أولاً سولانج ثم أبوه وها هي تتحضر للرحيل الآن.

قالت وهي تقبل رأسه: «أنا آسفة للغاية. كنت لأبقى لو استطعت،

لكن الطائرة ستفوتني إذا لم أرحل الآن».

ـ لا، لن تفوتك..

وبكى ثم رفع إليها وجهه المبلل بالدموع قائلاً: «إنها طائرة بابا وهي لن تفوتك إلا إذا طلبت أنت منها الرحيل. أنت غير مضطرة للرحيل الآن فابقي فترة أخرى لو كنت حقاً تحبينني كما أحبك!».

لو لم تكن تعرفه جيداً، وتعلم أنه آخر ولد في العالم يمكن أن يلجأ إلى الابتزاز، لما انهارت تحت ضغطه هذا. لكن حتى الغريب يمكنه أن يرى أن حزنه حقيقي، وهي لا تستطيع أن تتركه على هذا الحال.

قالت له موافقة: «يمكنني تأجيل رحيلي يوماً أو يومين، لكن حتى يعود بابا فقط. أنت تفهم ذلك يا أدريان، أليس كذلك؟».

فارتجفت شفتاه: «نعم».

والتفتت إلى السائق الصبور ثم قالت: «لا بد أنك سمعت؟».

ـ نعم يا آنسة.

ـ آسفة للإزعاج.

فقال بتعاطف: «لا بأس يا آنسة، فابن السيد هو الأهم. كلنا نتفهم ذلك».

كان رد فعل جوزيفين أقل تحفظاً حين علمت بتغيير خطة السفر فهتفت وقد تندّت عيناها بالدموع ثم تابعت تقول: «حسناً، الحمد لله لقد نجح أدريان حيث فشلت أنا».

فقالت آن ماري تنبهها: «سأبقى حتى يعود إيثان فقط. أرجو أن يكون هذا واضحاً للجميع».

ـ سنرضى بكل ما نحصل عليه. ستبقى الآنسة هنا في البيت الكبير يا مورتون. ضع حقائبها في الجناح المجاور لغرفة أدريان. سيشعر الصبي بالأمان عندما يعلم أنها قربه، وكذلك أنا.

من المدهش أن هذا ما شعرت به آن ماري رغم تلهفها السابق إلى الرحيل. هدأت حياة الجزيرة السهلة من اضطراب نفسيتها، ومرّ النهار من

دون أن يخترق سكونه سوى الحديث الهادىء وقرقعة الأطباق أثناء الغداء وشاي العصر، وضحكات أدريان وهو يسبح في البركة.

وفي المساء، جلست بجانبه وهو يتناول عشاءً خفيفاً، ثم وضعته في سريره وقرأت له قصة. بعدها خرجت من الغرفة على رؤوس أصابعها لتنضم إلى لويس وجوزيفين على مائدة العشاء في الشرفة.

كان الظلام قد أرخى سدوله، ورغم أن السماء صافية، إلا أن الهواء الآتي من البحر همد، تاركاً الجوّ ثقيلاً خانقاً. وعندما انهوا العشاء، بدأت السحب تزحف من الجنوب فحجبت النجوم.

قال لويس وهو يتقدمها إلى الداخل: «حال الطقس سيسوء. لقد حلّ فصل الأعاصير باكراً هذا العام».

كانوا يشربون القهوة حين خرق السكون وصول رئيس شرطة «بيلليفلير» وليس العاصفة المنتظرة.

ـ أرجو المعذرة لأني قطعت عليكم السهرة، لكنني تلقيت تقريراً من السلطات في «كاراكاس».

وسرعان ما أنبأهم لهجته بأنه لا يحمل خبراً ساراً: «غادر السيد بومونت المدينة هذا الصباح بالهليكوبتر في طريقه إلى منصة البترول التي تبعد سبعين ميلاً عن ساحل فنزويلا. لكنه لم يصل إلى وجهته، كما لم يصل أيّ خبر منه أو عنه منذ ذلك الحين».

شحب وجه جوزيفين ومدت يدها تمسك يد زوجها: «هل أرسلوا فرقة للتفتيش عنه؟».

ـ لا، يا سيدتي، عندما عرفوا أنه مفقود، كان الليل قد حلّ، لكنهم سيبدأون البحث عنه في الصباح.

سأله لويس وهو يرتجف: «من كان معه؟».

ـ لا أحد.

شهقت آن ماري بصوت مخنوق: «لا أحد؟ هل ذهب وحده وهو يعلم أن الأحوال الجوية سيئة؟».

ـ نعم يا آنسة، لكنه طيار خبير.

واتجه الضابط إلى الباب وهو يتابع برزانة بالغة: «آسف جداً لأني حملت إليكم هذا الخبر المكدّر. اطمئنوا إلى أن كافة الجهود ستبذل لإعادة السيد بومونت إلى بيته سالماً».

فسأله لويس: «هل ستواصل إطلاعنا على المستجدات؟».

ـ طبعاً يا سيدي. حالما أعلم بأيّ جديد، سأتصل بكم. أنا متأكد من أننا سنتلقى خبراً جيداً في الصباح.

لكنهم لم يتلقوا أيّ خبر في ذلك اليوم، أو في اليوم التالي، أو اليوم الثالث. وبدلاً من ذلك، بقيت الجزيرة تحت رحمة سلسلة من العواصف تركت الحديقة ركاماً مبعثراً.

لم تبكِ آن ماري لأن هذا يعني اعترافها بالأسوأ... بأن إيثان لن يعود، وهذا شيء لا يحتمل التفكير فيه.

قالت لجوزيفين التي راح خبلها يزداد: «علينا أن نتمسك بالإيمان بالله، وبأنه سيعود من أجلنا جميعاً لاسيما أدريان. فهو يحتاج إلى أبيه».

ولم يعد بالإمكان إخفاء الأمر عن الصبي. لاسيما وأنّ الخدم يتحدثون في ما بينهم عن المصيبة التي وقعت.

لم يتوقع أحد أن يتقبل الخبر بشكل جيد، كما لم يكن أحد مستعداً لسماع جوابه: «إنه ذنبي أنا، فقد تمنيت أموراً سيئة وها هي تتحقق. قلت لبابا إنني أكرهه، وها هو قد مات الآن».

قال هذا بكآبة بالغة بعد أن شرحوا له أن أباه تعرض لعاصفة فوق البحر. فسارعوا يطمئنونه: «لا يا حبيبي. بابا مفقود فقط. وهذا مجرد حادث، واللوم لا يقع على أحد، لا سيما أنت».

لكنه لم يشأ أن يتزحزح عن رأيه: «بل الذنب ذنبي أنا. أنا الذي فعلت ذلك».

وعندما حاولوا أن يحتضنوه ويواسوه، تملص منهم وركض إلى غرفته. همّت آن ماري باللحاق به، فقالت لها جوزيفين بحزن: «دعيه يا طفلتي.

إنه ابن أبيه الذي يتحمل وحده اللوم عن أي خطأ يحدث، ثم يعزل نفسه عن الذين يحبونه، لكي ينزف بمفرده. هذا هو طبعهما. سيخرج إلينا حين يصبح مستعداً، وسترين».

لكن عندما حل الظهر وأدريان لا يزال معتزلاً، لم تستطع آن ماري الصبر أكثر إذ لم يكن طبيعياً من صبي في مثل هذا العمر أن يحتمل هذا العبء المدمر من الشعور بالذنب الذي لا أساس له، وحده.

قالت للخادمة التي وجدتها تغير ملاءات السرير في غرفته: «جئت لآخذ أدريان لتناول الغداء».

فأجابت الفتاة: «لكنه ليس هنا».

ـ أتعرفين إلى أين ذهب؟

ـ لا، قال فقط إنه ذاهب للبحث عن أبيه.

سرى الصقيع في عروق آن ماري. لقد اختفى الصبي منذ أكثر من ساعة.

لم تشأ أن تثقل العجوزين بمزيد من الحزن وهما ينتظران بقلق أي خبر عن المفقود، فقالت للخادمة: «علينا أن نعثر على الصبي، ساعديني في تفتيش الغرف في هذا الطابق».

رغم أنهما فتشا كل إنش في الطابق الأعلى، ورغم أنها سخّرت خدماً آخرين لتفتيش الطابق الرئيسي، إلا أنهم لم يجدوا سوى قطيطة أدريان نائمة تحت كرسي. أما أدريان فلم يجدوا له أي أثر.

هتفت آن ماري وهي تشد شعرها بيأس: «ولما يكون هنا؟ إذا ما ذهب ليبحث عن أبيه، فلا بد أنه خرج. إننا نبحث في المكان الخاطىء».

فقال مورتون يذكّرها: «لكنه يعلم أن أباه لم يكن في الجزيرة حين فُقد. لذا، لن يجده في الحديقة ومن المستحيل أن يفتح البوابة ويهرب إلى الطريق. بالتالي، لا بد أنه ما زال هنا في مكان ما».

كان كلامه هذا منطقياً، لكن ارتياح آن ماري لم يدم طويلاً إذ خطر لها احتمال آخر، كان احتمالاً مفزعاً لم تستطع أن تنطق به، فقالت لهم:

«اذهبوا إلى أعمالكم ولا تنطقوا بكلمة أمام السيد والسيدة دكلوس. قدّموا الغداء كالعادة، وإذا سألاكم عني فأخبروهما أنني خرجت أتمشى وسأعود بسرعة».

نظر إليها مورتون متسائلاً: «تتمشين؟ في هذا الطقس؟ أشكّ في أن يتقبلا هذا التوضيح يا آنسة».

ـ أنا معتادة على الريح والمطر، وهذا هو المبرر الذي عليك أن تقدمه لهما، إذا سألاك. لكن إياك أن تعلمهما أن أدريان مفقود وأنني ذهبت للبحث عنه.

ـ عفواً يا آنسة. لكن بالإضافة إلى عملي هنا، من المفترض ألا أدعك تخاطرين بنفسك. يجب أن أصر على معرفة ما ستفعلينه.

ـ أظن أن الصبي ذهب إلى الشاطىء.

قالت هذا وهي تواجه الرجل من دون أن تطرف عيناها لإخباره أنصاف الحقائق فقط: «إنه يعلم أنّ أباه فقد في البحر، ولا بدّ أنه يتوقع أن يعود أبوه إلى البيت بهذه الطريقة. لذا، سيكون هناك في انتظاره».

(أرجوك يا إلهي أن يكون هذا كل ما فعله!) أخذت تدعو الله وهي تركض في الحدائق، قاصدة الطريق الأخرى التي تؤدي إلى الشاطىء وإلى مرآب القوارب.

كانت الطريق في بعض الأنحاء زلقة ومغطاة بالوحول التي التصقت بقدميها، لكن سفح التلة انحدر بشكل ساعدها. طريق العودة سيكون صعوداً، وإذا كان افتراضها خاطئاً ولم يكن أدريان على الشاطىء، ستتطلب العودة منها إلى المنزل نصف ساعة.

لكن حدسها كان أقوى من خوفها. لقد جاء من هذه الطريق... إنها واثقة من ذلك. وعندما أخذت تنزلق إلى حيث تقلّ كثافة الأشجار ويبدو الشاطىء للعيان، رأت فردة حذاء أدريان الأحمر ملقاة في منتصف الطريق، فأدركت أنها كانت على صواب في اتباع غريزتها.

تشبثت بدوالي العنب لتحافظ على توازنها، جاهدت لقطع المسافة

الباقية وهي تلهث من التعب، ثم قفزت إلى الرمال. إلى يسارها كان مرآب الزورق مفتوحاً وبابه الواسع مشرعاً فيما داخله خالٍ وتملكها الرعب وانقطعت أنفاسها فيما توقف قلبها عن الخفقان وخبا الأمل الذي أحضرها إلى هنا.

وببطء وخوف التفتت إلى يمينها. كان البحر الأزرق الهادىء المسالم بطبيعته هائجاً، وأمواجه الخضراء تعلو لترتطم بعنف بصخور الخليج الضيق. وعلى بعد حوالى خمسين ياردة من الشاطىء، رأت صبياً صغيراً يرتدي سترة نجاة ويتشبث بدقة بزورق شراعي فيما الأمواج تتقاذفه كعلبة كبريت.

حتى تلك اللحظة، لم تكن تظن أن الأمور قد تسوء أكثر، وأن رعبها يمكن أن يتصاعد أو أنها قد تخسر أكثر مما خسرت. ومع ذلك وفيما وقفت هناك وقد شلها الخوف راح الزورق يتمايل بشكل غريب، والريح تتقاذفه بقوة تكفي لتطيح به.

وعندما عاد الزورق فاستقام لم تر أي أثر لصبي صغير يرتدي سترة نجاة حمراء يتمسك بالدفة. لم تر سوى الشراع يرفرف ملتوياً بينما أدار الزورق مقدمته للريح: «أدريان!».

صرخت وهي تبحث في المياه الهائجة حتى احمرت عيناها لكن الريح حملت اسمه، قذفته بعيداً.

* * *

١٣ ـ دعني أغرق... في عينيك!

لم يسمعوه حين دخل، فوقف لحظة على العتبة ينظر إليهما. كانا جالسين قرب بعضهما البعض ورأسها على كتفه فيما ذراعه تلتف حولها.

لطالما رآهما بهذا الوضع وذلك منذ مدة طويلة لا يتذكرها زوجان لا يسمحان لشيء بأن يفرّق بينهما ولا حتى الحزن الذي بدا جلياً الآن في وضعهما.

شعر بطعنة ندم لأنه سبب حزنهما هذا، فيما لم يجلبا إلى حياته سوى بهجة وعطف لا حدود لهما.

ـ سمعت إشاعات تقول إنني ميت. أرجو أن لا تكونا قد خططتما لجنازة فخمة، لأنني أكره أن تذهب سدى.

قفزا من على الأريكة وكأنهما أقرب إلى الثلاثين منهما إلى السبعين. وعوّضه هذا تقريباً عما عاناه في الأيام الثلاثة الماضية. نسي ما عاشه حين رأى وجهيهما المشرقين وخطواتهما الفرحة وهما يتجهان نحوه.

قالت عمته: «أنا لا أحب إنفاق مبالغ باهظة على الجنائز الفخمة. لذا، خططت لاحتفال جنائزي في الكنيسة أدعو إليه سكان الجزيرة كلهم».

لكن لويس لم يكن يتمتع بعزيمتها أو مرونتها وعندما حاول أن يتكلم أخذ يسعل مختنقاً. فقالت تعنف إيثان: «أنظر ماذا فعلت أيها الأحمق. كانت معجزة أنك لم تسبب له نوبة قلبية!».

لم يكن واثقاً من قدرته على التحكم بنفسه فوضع ذراعاً حول كل منهما وقال: «أنا آسف لأنني سببت لكما القلق. لو كان بإمكاني أن أمنع ذلك

لفعلت. لكني هنا الآن، وكما تريان، سليماً معافى».

فقالت بحزم: «نعم. وعليك أن تقدم بعض الإيضاحات. ابدأ القصة من بدايتها ولا تترك أيّ تفصيل».

فقال وهو يضحك وكأنه يفعل ذلك لأول مرة بعد سنوات: «نعم، ولكنني أولاً بحاجة إلى الطعام».

أقبل رئيس الخدم راكضاً ووجهه يعكس الذهول والحيرة نفسيهما اللذين ارتسما على وجهي لوسي وجوزفين ثم هتف: «يا رب السماوات».

فقال إيثان: «إهدأ، يا مورتون، لست شبحاً إنما رجلاً متعباً للغاية وبحاجة إلى بعض الطعام والشراب».

فقالت جوزفين هازئة: «بعض الطعام؟ عودتك تستحق وليمة للاحتفال. لا تظهر هذه الكآبة يا مورتون فقد انتهى الكابوس».

فقال مورتون: «كلا مع الأسف».

التعبير الذي بدا على وجه مورتون لم يعجب إيثان فسأل بحدة وقد انتبه فجأة إلى السكون في أنحاء المنزل: «ماذا حصل؟ ما الذي تخفيه عنا؟ وأين ابني؟».

فقالت جوزيفين: «إنه في غرفته. لقد كتمنا الأمر عنه قدر ما نستطيع يا إيثان. وبعد ثلاثة أيام، شعرنا بأن علينا أن نخبره أنك مفقود. سيكون سعيداً للغاية عندما يرى أباه مرة أخرى. أرسل من يحضره إلى هنا من فضلك يا مورتون».

أخذ رئيس الخدم يتململ في وقفته بضيق: «آسف لأنني لا أستطيع، يا سيدتي. لقد ضاع أدريان أيضاً. بحثنا عنه في كل مكان في المنزل فلم نجده».

رفض إيثان أن يستسلم للذعر الذي تملكه، وقال: «حسناً، لا يمكن أن يذهب بعيداً. سنبحث عنه حول البيت».

ـ لقد ذهبت الآنسة باركلي للبحث عنه. اعتقدت أن الصبي ذهب إلى الشاطىء ليبحث عنك.

فصاح إيثان، وقد أفسد اختفاء ابنه سروره بعدم رحيل آن ماري إلى كندا: «منذ متى خرجت للبحث عنه؟».

ـ منذ نصف ساعة تقريباً يا سيدي.

ـ قد انتظرت حتى الآن لتذكر ذلك؟ يا إلهي، يا رجل. ماذا خطر لك؟

ـ قالت لي ألاّ أذكر شيئاً حتى تعود، إذ لم تشأ أن تكدّر السيدة جوزيفين أو السيد لويس من دون ضرورة.

فقال إيثان وهو يركض إلى الشرفة: «ضع كل المستخدمين في حالة تأهب وأرسلهم للبحث في كل الأنحاء، بما في ذلك الشواطىء».

* * *

لم يعد بإمكانها القيام بأيّ شيء. أخذت الأمواج تتقاذفها وتخطف أنفاسها، مهددة بإهلاكها. لكن الرياح هدأت قليلاً، وكانت هي تقترب من المركب. لن يغرق ادريان. إنه يرتدي سترة نجاة والمياه دافئة. كما أنّ المدّ باتجاه الشاطىء.

ورفعت رأسها تبحث. حاولت مرة أخرى أن تناديه لكن موجة أخرى صفعتها.

اندفعت المياه المالحة إلى فمها وأنفها، فاختنقت وأصابها الذعر. مدّت ذراعيها فاحتكتا بشيء ما... هل هي قشرة الزورق الخارجية؟ وفجأة، ضربتها موجة أخرى، وانزلق الزورق بعيداً.

فكرت في أنها لا تستطيع الصمود أكثر لكنها كانت تعلم أنها لا تستطيع أيضاً أن تتخلى عن المحاولة حتى تجد الصبي أو تغرق.

إنها مدينة بذلك لهذا الصبي ولكل من تحب. لكن ذراعيها أصبحتا بثقل الرصاص، وشعرت بألم في ساقيها وبحريق في رئتيها.

عاد الزورق ليعلو ويهبط أمامها مرة أخرى، فاندفعت إليه بكل ما تبقى لديها من قوة، لكنها أخطأته. ودفعته موجة أخرى نحوها فعلا فوقها هذه المرة.

إتسعت عيناها رعباً ونزلت تحته، ثم استسلمت لقدرة البحر الذي غمرها قاسياً لا يرحم.

إنها النهاية، وهذا أفضل لأنها لن تحتمل مواجهة آل بومونت مرة أخرى، وهي تعلم أنها لم تستطع أن تنقذ أدريان.

لكن الغرق على حدّ علمها لا يؤلم حين يتخلى المرء عن الكفاح. فلما تؤلمها جمجمتها؟ وما هذا الشيء الداكن الذي يحوم فوقها؟ سمكة قرش؟ آه، أرجوك يا ربي، دعني أموت قبل أن تهاجمني! وكان هذا آخر ما فكرت فيه.

شعرت بشيء يشدّها من شعرها ويرفعها إلى أعلى نحو الضوء. وفجأة أحسّت برئتيها تكادان تنفجران، وطفت على سطح الماء فوجدت نفسها تنظر مباشرة في البقعتين الزرقاوين الوحيدتين اللتين بقيتا في العالم. إنهما عينا إيثان الغاضبتان.

«كم مرة عليّ أن أقوم بهذا قبل أن تتعلمي» وكان صياحه يعلو على جلبة الأمواج.

آه، نعم. إنها ميتة. بل أسوأ من ذلك... لقد وصلت إلى الجحيم!

* * *

فتحت عينيها بحذر. كانت شمس العصر قد شقت طريقها من خلال الغيوم الرمادية، لتقع على الملاءات القطنية الباردة التي تغطيها. ما أشبه هذه الغرفة بغرفتها في فيلا بومونت!

ـ إذن فقد استيقظت أخيراً.

والتفتت لتجده يجلس متراخياً على كرسي بجانب السرير.

شعرت بالألم في كافة أنحاء جسمها، لا سيّما في عنقها.

قالت وهي تحاول أن تتذكر الأحداث التي أدت إلى هذه اللحظة: «ما عرفت أنني كنت نائمة».

لقد حدث شيء مخيف. فقد كانت خائفة ومرهقة، كما شعرت بحزن لا يحتمل.

ثم تذكرت، وغمرتها التعاسة: «آه، لا».

وغطت وجهها بيديها وهي تتأوه والدموع تنهمر من عينيها: «أدريان. . . !».

ـ أدريان في حالة أحسن من حالتك. فقد أظهر تعقلاً أكثر منك بكثير.

استغرق استيعابها لكلامه هذا لحظة. وأخيراً أنزلت يديها وتجرأت على أن تنظر إليه مرة أخرى.

ـ هل أدريان. . . حي؟

ـ إنه حي.

هزت رأسها تريد أن تصدق لكنها خافت ذلك: «كيف أمكن هذا؟ لم يكن هناك دليل. . .».

ـ إنه زورق صغير ممتاز.

ـ وهو ولد صغير جداً.

ـ لكنه ذكي، فقد علمته أن يلبس سترة النجاة دوماً. وهو يعرف كيف يربط نفسه جيداً أسفل مركز القيادة وينتظر حتى ينقذه أحد أو تقذفه الأمواج إلى الشاطىء.

استوعبت هذا في لحظة: «وماذا لو حملته الأمواج إلى البحر؟».

ـ إنه يعلم أن هذا لن يحدث لأن التيار في الخليج يتجه نحو الشاطىء. ولماذا تظنينه مليئاً بكل تلك الأخشاب والأصداف؟

ورقّ صوته قليلاً: «ارتاحي يا آن ماري. إنه بأحسن حال».

ـ وأنت؟

ورفعت نفسها تحاول أن تجلس ثم لمست ذراعه مترددة. شعرت بها صلبة دافئة، ومع ذلك كان عليها أن تسأله: «هل أنت بخير، أيضاً؟».

ـ نعم مع الأسف.

تنهدت طويلاً من أعماقها، وعادت تستند إلى الوسائد ثم قالت بصوت أجش: «الحمد لله».

فقدم لها شراباً بارداً وقال: «خذي اشربي هذا. سيخفف ما تشعرين به في حلقك».

ارتشفت القليل من العصير ثم عادت تنظر إليه: «أنت لا تكذب عليّ يا إيثان، أليس كذلك؟ هل أدريان بخير حقاً؟».

ـ أتظنين أنه لو لم يكن بخير، كنت أجلس هنا معك؟ نعم، إنه بخير، إنه في الطابق السفلي مع عمتي وزوجها يحشو نفسه بالكعك والكريما. لكنه يود أن يزورك إذا كنت قادرة.

ـ آه، نعم. أرجوك.

أمسك بالهاتف الداخلي ثم طلب الرقم، وقال: «إنها مستيقظة وقادرة على استقبال الزائرين».

لم يكد يضع السماعة حتى انفتح الباب ودخل أدريان وجوزيفين ولويس. عندئذٍ فقط، عندما رأته بعينيها صدّقت آن ماري ما قاله إيثان.

قالت له جوزيفين عندما خفت الحماسة بعض الشيء: «حسناً، هل سألتها؟».

فأجاب: «لم أسألها بعد».

فسألت آن ماري: «عما سيسألني».

فقال: «لا شيء لا يمكن تأجيله».

وحمل أدريان ووضعه على السرير. فقال له أدريان متوسلاً: «قل لها كيف نجوت يا بابا. أخبرها كيف تعطّل الراديو، وكيف اضطررت لأن تهبط على جزيرة مهجورة وتأكل سمكاً نيئاً طوال ثلاثة أيام».

نظر إيثان إليها فاكتسحتها الحرارة. رغم كل ما تغيّر في الأيام القليلة الماضية، ما زال تأثيره عليها هو نفسه. فقال: «يظنني خليفة روبنسون كروزو. في الواقع، كان في الطائرة من التموين ما يكفيني أسبوعاً».

قالت وقد غمرها دفء ابتسامته: «هل هذا هو سبب تأخرك في العودة إلى البيت؟».

فقال: «لا. حتى وإن لم تتحطم الطائرة عندما هبطت بها، لم يكن ضوء النهار كافياً لكي أرحل».

ـ وكيف نجوت؟

ـ تمكّنت أخيراً من أن أصلح الراديو، ثم طلبت العون.

فقال أدريان بوجه متألق وهو يقفز على السرير: «جاؤوا وأخذوه. والآن أخبرها كيف أنقذتني يا بابا».

فتدخّلت جوزيفين وعيناها الحادتان لا يفوتهما شيء: «سنتحدث عن ذلك لاحقاً. أظن أنّ ماري حصلت على كل الأخبار المثيرة التي يمكنها استيعابها حالياً. تعال يا أدريان ولنتركها لترتاح».

قالت آن ماري عندما لم يتحرك إيثان ليلحق بهم: «ينبغي أن تذهب معهم. لقد انهار أدريان عندما علم أنك مفقود. وأتصور أن وقتاً طويلاً سيمرّ قبل أن ينسى خوفه».

لم يهتم مثقال ذرة: «وماذا عنك يا آن ماري؟ هل كنت من اليأس بحيث سعيت إلى السلوان مع روبرتو سانتوس؟».

اعترفت وقد تبخر كل شعورها الحلو الدافىء الغامض: «كنت محطمة إلى حد كبير حينذاك».

ثم تابعت تقول: «لكنك أصبحت فظيعاً فرحت أتساءل عما جعلني أهتم بك».

ـ وأنا أجد نفسي أتساءل لما لم تعودي إلى ڤانكوفر عندما جاء خبر اختفائي.

ـ بقيت لأكون مع إبنك. كان بحاجة ماسة إليك، لكنك رأيت أن العمل أهم بكثير.

ـ أنا لست بحاجة إليك لتعلميني كيف أتصرف كأب.

ـ حسناً، على شخص ما أن يفعل ذلك.

ـ وأنت تظنين نفسك مؤهلة لذلك؟ أنت التي لم تنجبي طفلاً قط؟

ـ ربما لم أنجب، لكنني أعرف هذا. لعلك أمير في أعين سكان جزيرتك البسطاء يا إيثان بومونت، لكنك بالنسبة إليّ مجرد رجل متغطرس غبي لا يهتم بمشاعر الآخرين، لا بل يبتهج بالدوس عليها. وأنا أكرهك!

ـ آه، هذا حسن.

وتقدّم منها وأخذها بين ذراعيه مضيفاً: «أنت فعلاً على طريق الشفاء يا حبيبتي. شعرت بالقلق عليك لفترة».

ثم عانقها. وكان عناقاً طويلاً جداً وممتعاً للغاية. وعندما رفع رأسه أخيراً واستعادت هي أنفاسها، سألته: «ماذا قلت؟ بماذا دعوتني؟».

ـ سمعتني جيداً.

وأخذ يعبث بأصابعها فأدركت ذاهلة أنه يجاهد ليبقي صوته ثابتاً: «قلت لك (يا حبيبتي)».

سألته متوترة: «هل بدأت أهذي؟ هل أتصور أشياء؟».

فتنحنح: «لا، يا غاليتي آن ماري، ما حصل شكّل صدمة لكبرياء الرجل الغبية فيّ. فعندما رأيت أني أواجه الموت، أدركت أنني متلهف لأن أعيش فقط كي أقول لك إنني أحبك. طوال الوقت الذي كنت أتصارع فيه مع ذلك الراديو الكريه كنت أفكر فيك، تذكرت رائحة شعرك، وبشرتك. كل هذا منحني القوة للمثابرة».

ـ ولكن ما مدى حبك لي؟

فقال وهو يعانقها: «أكثر مما تتصورين».

ـ هل يكفي لكي تتزوجني؟

تراجع وقد اتسعت عيناه ذهولاً: «ألا تعتقدين أنك تستعجلين الأمور قليلاً؟».

ـ لا. فأنا أيضاً أحبك وأحب أدريان كثيراً. لم أكن أعرف أن مثل هذه المشاعر ممكنة، كرغبتي الجامحة في أن أمنح كل شيء. كل شيء، كل شيء يا إيثان... ! لأجعل شخصاً آخر سعيداً. لكن إذا كان هذا يفوق ما يمكنك أن تقبله فلعلك تحبني... لكنك لا تحبني بما يكفي.

نظر إليها برزانة لحظة طويلة: «لقد بقيت بينما كان بإمكانك أن ترحلي. استقبلتني بين ذراعيك وفي قلبك، وما زلت أفضل شيء حدث في حياتي، فكيف لا يمكنني أن أحبك بما يكفي؟ لكن عندما يصل الأمر إلى حد الزواج...».

www.elromancia.com

ـ . . . فهذا مستحيل لأنني لست من سكان الجزيرة وأنت تخشى أن أصبح مثل زوجتك.

وأشاحت بوجهها عنه وقد تحوّلت آمالها إلى رماد، لكنه أمسك بيديها وأرغمها على أن تنظر إليه مرة أخرى: «لا، الأمر ليس كما تظنين. ما كنت أنوي قوله هو إنك إذا قررت أن تكوني زوجتي، فعليك أن تدركي أنني لن أحضر معي أدريان وحسب بل أمور أخرى عليك أن تعلميها. . .».

ـ أدريان ابنك يا إيثان، وهذا وحده يجعلني أحبه.

ـ وهو أيضاً ابن امرأة أخرى. هل يمكنك أن تعيشي مع حقيقة أنها إذا أرادت أن تعود وأن تكون جزءاً من حياته فسيكون علي أن أسمح بذلك، وإن مكرهاً، لأن لا يحق لي أن أمنعه عن أمه؟

ـ هل يمكنك أن تعيش مع حقيقة أنني قد لا أستطيع أن أملأ مكانها الخالي إذا هي لم تفعل ذلك؟ وأن أدريان سيعلم دوماً أنني لست أمه الحقيقية؟

ـ ليس المطلوب منك أن تحاولي أخذ مكان ليزا، يا حبيبتي، لأنك لا تشبهينها في شيء. أنت أنت. . . وأنت كاملة كما أنت فقط.

ـ ما من إنسان كامل، يا إيثان. وينبغي ألا تنسى ذلك. على الإنسان أن يتقبّل خيبة الأمل.

ـ دعيني إذن أصحح كلامي وأقول إنك كاملة في نظري. أنت رائعة الجمال وعنيدة وذكية ولا تخافين من الثبات على رأيك. أنت هي من أحتاجها. فقد خففت من غطرستي، وذكرتني بأنني أرتكب الأخطاء كأي رجل آخر. لكنني، من ناحية أخرى، أنظر إلى الأمر من وجهة نظرك ولا أرى سوى التضحية التي ستقدمينها إذا تزوجتني.

ـ حسناً، سأضحي طبعاً وكذلك أنت. الحب ليس رخيصاً وهو بحاجة إلى تضحية وتسوية، إنه يعني الاهتمام بحاجات الشخص الآخر أكثر من اهتمامك بحاجاتك الخاصة.

سكتت ثم أخذت نفساً مؤلماً: «إلى هذا الحد أحبك يا إيثان. أحبك إلى درجة أني مستعدة لأن أرحل إذا كان هذا ما تحتاج إليه».

ـ إلى جهنم برغبتك هذه! ليس في نيتي أن أدعك ترحلين. . . أبداً.

وأخذ يلامس خدها بلطف.

قُرع الباب ثم أطلت جوزيفين برأسها: «عذراً على المقاطعة يا إيثان، لكنني لم أعد أستطيع الصبر دقيقة أخرى. ألم تعرض عليها الزواج بعد؟».

فقال وهو ينظر بحنان إلى آن ماري: «لا. فقد طلبت يدي أولاً، وأنا قبلت».

فقالت جوزيفين: «هذا رائع. سأطلب من مورتون تحضير وليمة للاحتفال».

فقال: «بكل تأكيد. لكن لا تتوقعي أن ننضم إليكم بسرعة. لدينا أمور نناقشها أولاً، وإذا لم يكن لديك مانع يا عمتي، أفضل أن نناقشها في عزلة».

ـ طبعاً. خذ الوقت الذي تحتاجه.

وتركتهما وحدهما.

قال وهو يتأملها: «أحتاج طوال الحياة. لكنني تعلمت من الأيام القليلة الماضية أننا لا نستطيع أن نضمن سوى اللحظة التي نعيشها الآن. فلنجعلها إذن تدوم ما دامت لدينا القوة على الحب. فلنجعلها تدوم إلى الأبد، يا جميلتي آن ماري».

فقالت له بالفرنسية: «نعم، يا حبيبي، فلنفعل هذا».

وسكتا عن الكلام.

* * *